

## الهوية والحداثة عند حسن توفيق العدل

د. سيد حافظ عبد الحميد

أستاذ مساعد الفكر العربي الحديث - كلية الآداب - جامعة بني سويف

### ملخص

يتناول هذا البحث قضية الهوية والحداثة عند حسن توفيق العدل، وهو أول مصري - من الذين جمعوا بين الدراسة في الأزهر، ودار العلوم - يسافر إلى ألمانيا؛ حيث انتخبته نظارة المعارف المصرية معلمًا للغة العربية وآدابها في مدرسة برلين الشرقية لمدة خمس سنوات (١٨٨٧-١٨٩٢)، ثم عمل أستاذًا للغة العربية وآدابها في جامعة كامبردج (١٩٠٢-١٩٠٤)، يحاول البحث أن يكشف عن كيف مثلت الحداثة الغربية مع المكون التراثي الإسلامي والعربي دافعًا لدى حسن توفيق العدل لإعادة النظر في طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر، ومفهوم الهوية ودوائر الانتماء، والتأسيس لهوية منفتحة على الآخر، قادرة على التواصل معه، والاستفادة من الحداثة كمنجز إنساني، دون أن نفقد هويتنا ونفصل عن أصيل تراثنا.

الكلمات المفتاحية: (الهوية - الحداثة - الغيرية - الوطنية - التراث).

### Identity and Modernity in the Thought of Hasan Tawfiq al-Adl

Dr. Sayyid Hafez Abdul Hamid

Assistant Professor of Modern and Contemporary Arab Thought

#### Abstract

This research examines the issue of identity and modernity in the thought of Hasan Tawfiq al-Adl, the first Egyptian to study at both Al-Azhar and Dar al-Ulum. He was selected by the Egyptian Ministry of Education to teach Arabic language and literature at the Berlin Eastern School for five years (1887-1892). He later served as a professor of Arabic language and literature at Cambridge University (1902-1904). The research aims to reveal how Western modernity, combined with the Islamic and Arabic heritage component, motivated Hasan Tawfiq al-Adl to reconsider the nature of the relationship between the self and the other, the concept of identity and circles of belonging, and the establishment of an identity open to the other, capable of communicating with it, and benefiting from modernity as a human achievement, without losing our identity and heritage.

**Keywords:** (Identity- Modernity- Otherness- Nationalism - Heritage)

## مقدمة

يعالج هذا البحث قضية الهوية والحدثة عند حسن توفيق العدل (١٨٦٢-١٩٠٤)، وهو أول مصري - من الذين جمعوا بين الدراسة في الأزهر، والتعليم الهجين في مدرسة دار العلوم- يسافر إلى ألمانيا؛ حيث انتخبته نظارة المعارف المصرية معلماً للغة العربية وآدابها في مدرسة برلين الشرقية، وطالباً لدراسة أصول التدريس لمدة خمس سنوات (١٨٨٧-١٨٩٢)، ثم عمل أستاذاً للغة العربية وآدابها في جامعة كمبردج (١٩٠٢-١٩٠٤).

ويعد حسن العدل واحد من أصحاب الفكر الوطني التنويري، الذين قدّموا إسهامات جديدة وجادة للفكر المصري والعربي الحديث، من خلال التأليف والتدريس والترجمة، وقدم مشروعاً تربوياً مهماً لبناء الهوية الوطنية المصرية، جمع فيه بين أصيل التراث، وأصول الحدثة، ليعالج مشكلات واقعه الأزوم الذي وقع في فخ الحدثة البرانية من ناحية، وتغلغل التراث اللاعقلي في البنية الاجتماعية من ناحية أخرى، هذا إضافة إلى الإحتلال الانجليزي في ظل التوسع الإمبريالي الغربي.

ولا يزعم هذا البحث أنه سوف يقف بشكل كلي وتفصيلي على جوانب مشروع حسن العدل، وإنما سوف نحاول أن نقف على أسس هذا المشروع وقواعده.

إن السؤال المركزي الذي يدور حوله البحث هو كيف استطاع حسن توفيق العدل أن يجمع بين المكون التراثي، والمكون الحداثي الغربي لتأسيس رؤية في طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر، ومفهوم الهوية ودوائر الانتماء، والتأسيس لهوية منفتحة على الآخر، قادرة على التواصل معه، والاستفادة من الحدثة كمنجز إنساني، دون أن فقدان الهوية والإنفصال عن أصيل التراث؟ وسوف يتفرع عن ذلك مجموعة من الأسئلة مثل متى أثرت قضية الهوية؟ وما طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر؟ وما الفرق بين الحدثة والحدثة البرانية؟ وما مفهوم الوطن وثوابت الهوية؟ وما هي أسس بناء الهوية؟.

وينقسم هذا البحث إضافة إلى المقدمة والخاتمة، إلى أربع نقاط رئيسة كالتالي. أولاً: حياته ومكوناته الفكرية: وقفت فيها على حياته، وأعماله، ومكوناته الفكرية التي جمعت بين المكون التراثي، والمكون الحداثي، وتأثره برواد الاتجاه المحافظ المستتير وخاصة أستاذه المباشر حسين المرصفي (ت: ١٨٩٠)، والأستاذ الإمام محمد عبده (ت: ١٩٠٥).

ثانياً: الهوية والغيرية: عالجت من خلاله مجموعة من النقاط وهي متى بدأ سؤال الهوية، والحدثة والحدثة البرانية، والأنا في منظور الآخر، ومن الأنا إلى نحن.  
 ثالثاً: الوطنية وثوابت الهوية: تناولت فكرة الوطنية المصرية ودوائر الانتماء، ومفهوم الوطن، وآليات بث الهوية الوطنية مثل اللغة الوطنية، وتاريخ الوطن، وجغرافية الوطن.  
 رابعاً: قواعد بناء الهوية: وقفت خلاله على القواعد الأساسية التي لا يكتمل بناء الهوية عند حسين توفيق العدل بدون التأسيس عليها، وإلا ستظل الذات أسيرة الحدثة البرانية الشكلية والتي تمثلت في: بناء العقل الناقد وإزاحة عقلية الخرافة، وتنقية أصول الدين، وحقوق المرأة.

وقد استعنت في هذا البحث بالمنهج التحليلي للوقوف على أصول أفكار حسن توفيق العدل، والمبادئ الكلية التي تحكم فكره، والتي لا يضمها كتاب واحد؛ بل هي متناثرة في نصوصه المتنوعة، وهذا أمر يعانیه كل باحث في الفكر العربي الحديث، كما استعنت بالمنهج المقارن، للوقوف على مواطن تميز فكره، وكذا مواطن الاتفاق والاختلاف مع نظرائه في الفكر العربي الحديث، وحاولت أن أبتعد عن التعمق في الأحداث التاريخية والسياسية قدر المستطاع، وأشرت فقط إلى بعض الأحداث الوطنية التي كانت تدعم وتسير جنباً إلى جنب مع تطور الهوية الوطنية المصرية.  
 ولعل هذه الدراسة تكون إضافة إلى حقل دراسات الفكر العربي والإسلامي الحديث، والتي حاولت أن تلقي الضوء على شخصية لم تأخذ الاهتمام الكافي من البحث والدراسة، وعلى قضية حاضرة وبقوة في وقتنا الراهن وهي قضية الهوية والانتماء الوطني.

### أولاً: حياته ومكوناته الفكرية:

أ: حياته وأعماله:

١ - نشأته وحياته:

ولد حسن توفيق عبد الرحمن العدل (١٨٦٢-١٩٠٤م / ١٢٧٨-١٣٢٢هـ) في الإسكندرية لأب كان يعمل رئيساً للأقلام العربية بنظارة الحقانية<sup>١</sup>، تعلم علوم الفقه واللغة

١ - محمد عبد الجواد: تقويم دار العلوم، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥٢، ص: ١٨٢.

في دمياط<sup>٢</sup>، ثم انتقل إلى القاهرة ليلتحق بالأزهر الشريف فأخذ المذهب الشافعي ودرس العلوم معقولها ومنقولها على أكابر العلماء بالجامع الأزهر، وحصل على إجازات أربع من كبار شيوخه، مثل الشيخ إبراهيم السقا(ت-١٨٨١)، والشيخ حسن العدوي(ت-١٨٨٦)، والشيخ محمد الإناباي(ت-١٨٩٦)، والشيخ محمد البناني الشنقيطي<sup>٣</sup>، وأثناء دراسته بالأزهر كان ملتحقًا بمدرسة الشيخ صالح المسائية، فدرس اللغة الفرنسية كما تلقى علوم الجغرافيا والرياضة والتاريخ<sup>٤</sup>.

التحق حسن العدل بمدرسة دار العلوم عام ١٨٨٣، ف قضى فيها أربع سنوات، تخرج بعدها فرقة وحده ١٨٨٧، وعمل بالتدريس<sup>٥</sup>. ثم أُنتخب في نفس السنة للذهاب إلى ألمانيا، فسافر إلى برلين مساعدًا لتعليم اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية، وطالبًا لدراسة صناعة التدريس(أصول التدريس)<sup>٦</sup> فغادر مصر يوم الثلاثاء ٦ سبتمبر ١٨٨٧<sup>٧</sup>، وقضى في ألمانيا خمس سنوات، وأصدر في برلين مجلة(التوفيق المصري)<sup>٨</sup>، وقد تلقى العلم عليه كثير من المستشرقين الذين اشتهروا في الدوائر السياسية والفنصلية والتجارية<sup>٩</sup>، وفي أواخر مدته في ألمانيا أمضى بضعة أشهر متنقلًا في أوروبا وخصوصًا إنجلترا، بقصد الوقوف على طرق التعليم في مدارسها الكبرى، فزار أكسفورد وكمبريدج،

- ٢ - السيد أحمد علي عامر: الشيخ حسن توفيق العدل وفكره التربوي وتطبيقاته المعاصرة، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ودار الجديد للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢١، ص: ٥٧.
- ٣ - محمد عبد الجواد: آثار المرحوم حسن توفيق العدل، صحيفة دار اعلوم، ع٤، س١٣، القاهرة، ديسمبر ١٩٤٧، ص: ٢٢-٢٣.
- ٤ - محمد عبد الجواد: تقويم دار العلوم، ص: ١٥٠.
- ٥ - نفسه، ص: ١٧٨.
- ٦ - زكي صالح، محمود مرسي: البعثات العلمية في القرن التاسع عشر، الكتاب الثاني، مطبعة وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ١٩٦٣، ص: ١٦٣.
- ٧ - حسن توفيق العدل: رحلة حسن افندي العدل ١٨٨٧-١٨٩٢، دراسة محمد صابر عرب، إعداد عبد المنعم محمد سعيد، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص: ٣٠.
- ٨ - خير الدين الزركلي: الأعلام، ج٢، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، مايو ٢٠٠٢، ص: ١٨٦.
- ٩ - ذكي محمد مجاهد: الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشر الهجرية، ج٤، مطعة الفجالة الجديدة، القاهرة، ١٩٦٣، ص: ٤٩.

ثم عاد إلى مصر ١٨٩٢ ليُعيّن (مفتشاً) في نظارة المعارف، وعضواً بهيئة التدريس في دار العلوم، وفي تلك الفترة قام بتأليف ونشر بعض أعماله<sup>١٠</sup>، ووضع في برنامج دار العلوم الدراسي مقرري (تاريخ آداب اللغة العربية) و(التربية العلمية، والتربية العملية)، فكان أول من وضع فيها الكتب ودرسها بتلك المدرسة على نظام تام<sup>١١</sup> وقد ركز في هذه الفترة على تربية الناشئة من خلال التأليف والترجمة والممارسة العلمية معلماً أو مفتشاً<sup>١٢</sup>.

ولما قدم الدكتور براون - الأستاذ الانجليزي بجامعة كمبردج - إلى مصر ١٩٠٢ - ١٩٠٣، طلب السماح لحضور دروس دار العلوم ، فوقع اختياره على حسن أفندي توفيق العدل؛ ليقوم بتعليم العربية في جامعة كمبردج، فذهب العدل إلى إنجلترا في العاشر من أكتوبر عام ١٩٠٣، فأجاد وابتكر في أساليب تعليم العربية، وحببها إلى طلابه، مؤكداً على ضرورة تعلم العربية والتعلق بها والشعور بما يشعر به أهلها، وأصبح أستاذاً للغة العربية في كمبردج<sup>١٣</sup>.

ولم يطل بمفكرنا المقام في إنجلترا، ففي يوم الجمعة الموافق الثالث من شهر مايو عام ١٩٠٤ انتقل إلى جوار ربه؛ إثر نوبة مرض حاد لم يعرفه الأطباء إلا بعد وفاته، وقد اهتزت لموته أركان دار العلوم، وحزن عليه كل من عرفه من المقيمين بإنجلترا، وقامت وزارة المعارف المصرية بنقل جسده على نفقتها، ووزعت الوزارة في صباح يوم ٢٧ يونية ١٩٠٤ نشرة، أعلنت من خلالها أن سوف سيحتفل في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الثلاثاء ٢٨ يونية ١٩٠٤ في محطة مصر العمومية، بتشييع جنازة فقيد العلم (حسن أفندي توفيق العدل). انطلقت الجنازة من محطة مصر، مروراً بباب الحديد وجابت شوارع القاهرة وصولاً إلى مسجد السيدة زينب؛ حيث أقيمت عليه صلاة الجنازة، وتم دفنه بمقابر الأسرة في السيدة نفسية. وقد شيعه الوزراء وكبار رجال الدولة المصرية

١٠ - محمد عبد الجواد: المرجع السابق، ص: ١٨١.

١١ - نفسه، ص: ٤٠، وص: ١٧٣.

١٢ - محمد صابر عرب: ما خفي من أدب الرحلات سياحة في حياة حسن أفندي العدل، مجلة الهلال، القاهرة، ٦، يونيه، ٢٠٠٥، ص: ٣٥.

١٣ - محمد عبد الجواد: المرجع السابق، ص: ١٨١.

والعلماء وفي مقدمتهم الأستاذ الإمام محمد عبده، وكذلك كبار رجال السلطة الإنجليزية، وأصدقائه ورجال السياسة ومن بينهم الزعيم مصطفى كامل<sup>١٤</sup>.

كان حسن توفيق العدل خير داع لسمعة مصر وأصالة الهوية المصرية، وكانت سيرته في ألمانيا عاطرة يعرفها رجال الدين والسياسة، فقد شكره الامبراطور (فيلهلم الأول)، وكرّمه وأثنى عليه وقلده وساماً ملكياً، على أثر قصيدة نظمها العدل في مدحه باللغة العربية وترجمت إلى اللغة الألمانية. كذلك فقد أثنى عليه الزعيم الألماني بسمارك، وشكر له عنايته بترجمته وذكر مناقبه في رحلته البرلينية<sup>١٥</sup>.

## ٢- آثاره العلمية والأدبية:

ترك حسن توفيق العدل مجموعة من المؤلفات العلمية المهمة منها: كتاب «البيداجوجيا العلمية أي هداية الأطفال» بقسميه النظري والعلمي (١٨٩١-١٨٩٢)، وكتاب «الحركات الرياضية» (١٨٩٥)، وكتاب (الرحلة البرلينية)، وكتاب (مرشد العائلات إلى تربية البنين والبنات) (١٨٩٧)، و(رسائل البشري في السياحة بألمانيا وسويسرا ١٨٩١). وكتاب (سياسة الفحول في تثقيف العقول) طبع في عام ١٩١٠م، وكتاب (تاريخ آداب اللغة العربية) ١٩٠٤، وكتاب (أصول الكلمات العامية) طبع ١٩٠٧، و(رسالة المقامة العذلية والمقالة العذلية) طبع ١٩٠٧، وله كتاب في التاريخ العام، قد ذكره في الجزء الثاني من كتاب البيداجوجيا<sup>١٦</sup>.

## ب: المكونات والمؤثرات الفكرية:

### ١- المكوّن التراثي:

شكل التراث أحد مكونات عقلية حسن توفيق العدل، فقد تلقى تكوينه الأول في الأزهر الشريف، وتلقى الإجازات في علوم الحديث، والفقهاء الشافعي، وعلوم اللغة، وكان في هذه الفترة ينسخ المنظومات والرسائل الفقهية مثل نسخه لنظم مثلثات قطرب، ورسالة في مسألة الوصية المشهورة بالصعوبة في المواريث للقويسني، كما ألف منظومة في

١٤ - المرجع السابق، ص: ١٨٢-١٨٤.

١٥ - نفسه، ص: ١٨٠.

١٦ - حسن توفيق العدل: البيداجوجيا في التعليم والتربية العمليين، ج٢، المطبعة الأميرية ببولاق،

القاهرة، ١٨٩٢م، ص: ٧٩.

الحديث، وشرحها<sup>١٧</sup> وفي دار العلوم درس مقامات الحريري، وقام بتأليف (رسالة المقامة العذلية والمقالة العذلية) على نمط مقامات الحريري<sup>١٨</sup>، وألف على طريقة القدماء فنظم منظومة في النحو، ومنظومة في علم الحديث<sup>١٩</sup>، ومنظومة في الحساب<sup>٢٠</sup>، وأرجوزة في آداب الدعاء نظمها للطلاب<sup>٢١</sup>. ويعد كتابه سياسة الفحول وتنقيف العقول نموذجًا لتفاعل حسن توفيق العدل مع التراث، وتوظيفه في الواقع، والبحث عن دور العقل في التراث وتأكيد، يقول: "فقلت لبيت شعري اهي آثار طول أم آثار عقول. ولما فغرت وصيدها أفييتها مدبجة بأشكال حرفية، وكلمات عربية... وما زلت أستكشف تلك الرسوم والأشكال؛ حتى تبين أنها آثار عقول لا آثار طول.. واخترت من كل قسم جملة لا ريب في أنها تنقف العقول الأبية، وتهذب الأخلاق الدنية"<sup>٢٢</sup> كما أن اهتمامه بكتابة تاريخ آداب اللغة العربية يعد من أهم الدراسات في عصر النهضة بعد دراسة أستاذه حسين المرصفي ((الوسيلة الأدبية) حول التراث الأدبي العربي).

وقد كان هذا المكون التراثي حاضرًا مع رواد النهضة مثل حسن العطار (ت: ١٨٣٥م) من خلال حاشيته على شرح جلال الدين المحلي (ت: ٨٦٤هـ) على جمع الجوامع لتاج الدين بن السبكي (ت: ٧٧١هـ)، وكذلك حاشيته على شرح زكريا الأنصاري (ت: ٩٢٦هـ) لمتن إيساغوجي في المنطق لأثير الدين الأبهري (ت: ٦٦٣هـ)<sup>٢٣</sup> ورفاعه الطهطاوي (ت: ١٨٧٣م) الذي استعان ب(رسالة اللؤلؤ النظيم في

١٧ - محمد عبد الجواد: آثار المرحوم حسن توفيق العدل، ص: ٢٤.

١٨ - محمد كمال العدل مقدمة رسالة المقامة العذلية والمقالة العذلية لحسن العدل، مطبعة مدرسة والده عباس الأول، القاهرة، ١٩٠٧، ص: ٣-٤.

١٩ - أنور الجندي: أعلام لم ينصفهم جيلهم، مطابع الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ص: ٢٧.

٢٠ - محمد صابر، مقدمة كتاب رحلة حسن أفندي توفيق العدل ١٨٨٧-١٨٩٢، ص: ١٠.

٢١ - حسن توفيق العدل: أرجوزة في آداب الدعاء، تحقيق صالح محمد عبد الفتاح، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، القاهرة، س ٤٩، عدد ٥٦٤، ٢٠١٢، ص: ٦٨-٦٩.

٢٢ - حسن توفيق العدل: سياسة الفحول في تنقيف العقول، مطبعة أبي الهول، القاهرة، ط١، ١٩١٠، ص: ٦-٧.

٢٣ - بيتر جران: الجنور الإسلامية للراسمالية مصر ١٧٦٠-١٨٤٠، ترجمة محروس سليمان، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٢، ص: ٣٤١-٣٥٣.

رَوْمُ التعلّم والتعلّم) لذكريا الأنصاري(ت: ٨٢٦هـ) ضمن كتابه المرشد الأمين في تعلّم البنات والبنين(٢٤)ومحمد عبده الذي درّس مقدمة بن خلدون في دار العلوم، وشارك في إحياء تراث عبد القاهر الجرجاني(ت: ٤٧١هـ).

ولقد كان حسن توفيق العدل امتدادًا للاتجاه المحافظ المستتير ورواده، وخاصة شيخه الأول حسين المرصفي، والأستاذ الإمام محمد عبده، وقد مثل التراث (التراث العقلاني) أحد أسس التنوير لديه، وأحد مقومات الحداثة الوطنية الممكنة، باعتباره أساس من أسس الهوية، وأحد مكونات النموذج المعرفي، وهو ما سوف تحاول هذه الدراسة أن تكشفه.

## ٢- المكوّن الحداثي:

يتمثل المكون الحداثي لدى حسن العدل في مستويين، الأول: مكون حداثي تلقاه في مصر من خلال تعلمه اللغة الفرنسية في مدرسة الشيخ صالح المسائية، والتعلّم الهجين في مدرسة دار العلوم الذي جمع بين علوم الدين واللغة، والعلوم الحديثة، والثاني: مكون حداثي تلقاه بعد عبوره الحدود الجغرافية والاجتماعية والثقافية، بعد تخرجه من دار العلوم عام ١٨٨٧، عبر تجربة مهنية وثقافية متميزة في أوروبا شملت تدريس اللغة العربية والدراسة مع المستشرقين في برلين<sup>٢٥</sup>، وتدريس اللغة العربية في كامبريدج، والتحاقه عضواً بالجمعية الآسيوية الملكية في لندن. إضافة إلى رحلاته العلمية الثقافية والتي دونها في كتابيه (الرحلة البرلينية) وكتاب رسائل البشرى في السياحة بألمانيا وسويسرا ١٨٨٩.

وسوف يظهر المكون الحداثي في جميع أعماله ونصوصه التي أنتجها بعد سفره إلى ألمانيا في عام ١٨٨٧، سواء من خلال الأطروحات والأفكار، أو من خلال طرق العرض والتناول مثل كتاب البياجوجيا، وكتاب مرشد العائلات في تربية البنين والبنات، أو كتاب تاريخ آداب اللغة العربية.

٢٤ - رفاعة الطهطاوي: رفاعة الطهطاوي: الأعمال الكاملة، ج٢، تحقيق وتقديم محمد عمارة، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ١٩٧٣-١٩٨١م، ص: ٨٠٤-٨١٠.

25 -Islam Dayeh: Hasan Tawfiq al-Adl (d. 1904) – Arabic Tutor and Author at the Seminar für Orientalische Sprachen in Berlin, 1887–1892,p;270, <http://hdl.handle.net/1854/LU-01HTWGSQMXENF51GPNST270DDE>



لكن هذا المكون الحدائى سوف يبدو في صيغة أخرى مع المكون التراثى أشارت إليها الباحثة البريطانية هيلري كالمباخ (Hilary Kalmbach) تمثلت في تبديله بين أنماط مختلفة من اللباس واللقب. فقد تم إدراجه (كشيخ) في إعلان انضمامه إلى الجمعية الملكية الآسيوية في لندن، وارتدى زي عالم دين عند لقائه بالقيصر الألماني، ومع ذلك استخدم لقب (أفندي) وظهر بالبدلة والطربوش في صورة عام ١٨٩٥ لأعضاء هيئة التدريس في دار العلوم<sup>٢٦</sup>. وهذا وإن كان يعني استخدام العدل اللباس كعلامة مقروءة اجتماعياً لأداء الانتماء إلى مجموعات اجتماعية مختلفة في نقاط زمنية مختلفة، وتجاوز الحدود الاجتماعية والثقافية، عند كالمباخ، فإنني من ناحية أخرى أراه معبراً عن مركزية قضية الهوية عند حسن توفيق العدل وإشارة إلى قدرة الذات على استيعاب التفاعل بين المكون التراثى والمكون الحدائى.

### ثانياً: الهوية والغيرية:

#### ١- سؤال الهوية:

كان سؤال الهوية هاجس العقل العربى والمصرى في أواخر القرن التاسع عشر بعد أن مهدت له عوامل كثيرة منذ مطلع القرن التاسع عشر، منها وجود وتزايد طبقة المثقفين والأنتلجانشيا<sup>٢٧</sup>، وحركة التعليم الحديث، وحركة الترجمة، وإدخال الطباعة، وظهور صحافة الرأي، ويقظة الرأي العام، والوعى القومى، والمطالبة بحياة نيابية حقيقية، وفي الوقت نفسه كانت الإمبريالية الأوروبية تزداد سطوة، والسلطنة العثمانية تقترب من نهايتها<sup>٢٨</sup>.

انطلقت رحلة المواجهة مع الآخر منذ أخريات القرن الثامن عشر من خلال التجربة الاستعمارية التي بدأت مع الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨-١٨٠١، وحملة فريزر

26 - Hilary Kalmbach: Islamic Knowledge and the Making of Modern Egypt, Cambridge University Press, United Kingdom, 2020, p;39.

<sup>٢٧</sup> - الأنتلجانشيا فئة تشمل المبدعين كالأدباء، والمهنيين كالأطباء والمدرسين والمهندسين، وموظفي الدولة، ورجال الصحافة، وهي فئة أوسع من فئة المثقفين التي يمكن القول أنها صفة الأنتلجانشيا: ينظر شريف يونس: سؤال الهوية وسلطة المثقف في عصر ما بعد الحدثة، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ط١، ١٩٩٩، ص:٩.

<sup>٢٨</sup> - أحمد عبد الرحيم مصطفى: مصر والمسألة المصرية ١٨٧٦-١٨٨٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١، ص:ز.

الإنجليزية ١٩٠٧، ثم أتت بعدها مرحلة كان الإلتقاء بالغرب اختيارياً لنقل حدثه، من خلال البعثات التعليمية، لتبدأ مرحلة جديدة على يد طبقة المثقفين الجدد الذين درسوا في الغرب واحتكوا بثقافته وتجاوزوا معه، ليس فقط الغرب السياسي والاستعماري، ولكن الغرب الفكري والثقافي أي بالمجتمع الغربي ككل، علومه ومذاهبه، وفلسفاته، ونظريته للوجود والحياة، والاقتصاد والعمل، والمرأة والرجل، والتربية والتعليم.. الخ. فظهرت إرهابات الوطنية المصرية مع كتابات الطهطاوي مثل (المرشد الأمين للبنات والبنين)، و(مناهج الألباب المصرية في مباحث الآداب العصرية)<sup>٢٩</sup>، وبدت ملامح القومية العربية مع كتابات بطرس البستاني واهتمامه باللغة والتراث<sup>٣٠</sup>، ونهض ناصيف اليازجي، لإيقاظ الروح العربية وأنها قادرة على العودة إلى السباق الحضاري<sup>٣١</sup>.

وصحيح أن الحداثة العربية والإسلامية في القرن التاسع عشر لم تكن أول حركة في التاريخ الإسلامي الحديث تنادي بالحاجة الماسة إلى الإصلاح وإحياء الإيمان. فقد ظهرت في القرن الثامن عشر أصوات إحيائية، لكن الحداثيون في القرن التاسع عشر واجهوا تحدياً لم يواجهه المصلحون الأوائل، تمثل في هجوم الحداثة الغربية. والتي لم تكن مجرد مجموعة من المثل العليا غير المجسدة؛ بل كانت مرتبطة بالتوسع الإمبريالي لأوروبا المسيحية؛ حيث سمحت وسائل الحرب الحديثة لأوروبا بغزو مناطق شاسعة من العالم الإسلامي؛ حتى أن المسلمين المعاصرين شعروا بالقلق إزاء احتمالات الخضوع الكامل<sup>٣٢</sup>. ومع أن بعض الإصلاحات القانونية والطبية والتغيرات الاجتماعية والثقافية المرتبطة بالحداثة الغربية وجدت مقاومة ليست باليسيرة<sup>٣٣</sup>، لكنها سارت بلا توقف، وخاصة التغيرات الاجتماعية والمادية، فقد تغلغت أفكار الحداثة الأوربية إلى الشرق العربي؛

٢٩ - أمنة حجازي: الوطنية المصرية في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص: ٦١-٧٥.

٣٠ - بطرس البستاني: محيط المحيط، د. ن، ج١، ١٨٦٧م ص: ٢.

٣١ - ناصيف اليازجي: علوم العرب، ضمن مجالي الغرر لكتاب القرن التاسع عشر، ج١، تجميع يوسف صفيح، المطبعة العثمانية، بعيدا - لبنان، ط٢، ١٩٠٦م ص: ١٨-٢٠.

32 - Charles Kurzman : Modernist Islam, 1840-1940, Oxford University Press, USA, 2002, p. 6.

٣٣ - خالد فهمي: الجسد والحداثة (الطب والقانون في مصر الحديثة)، ترجمة شريف يونس، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٢، ٢٠١٦، ص: ٧-٣٢.

خاصة مع نشوء الرأسمالية في أوروبا والرخاء الاقتصادي ووفرة البضائع؛ ومن ثم إعادة تشكيل السوق العالمية حيث جرى تدويل وسائل الإنتاج، والسلع الاستهلاكية، والمواصلات<sup>٣٤</sup>. وكما أصبح الغرب متواجد في الكتابات العربية أصبح - أيضاً - موجود في كل بيت عربي من خلال الأثاث والملابس والسلع الغربية والعمارة والفنون وأدوات الإنتاج، وكذلك في كثير من سلوكيات وعادات الذين ظنوا أن تقليد الغرب دليلاً على التمدن. وقد بانث آثار هذا التغلغل واضحة بشكل قوي خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (٣٥)، وجدير بالذكر أن رائدات الحركة النسائية مثل زينب فواز، ووستين مسرة، واستير أزهرى، وهناء كوراني، وعائشة التيمورية، وسارة نوفل، وفريدة بستاني كن على وعي تام بقضية الأنا والآخر، وانتقدن تقليد كل ما هو غربي لكونه كذلك، وذهبن إلى أن الأخذ عنهم يجب أن يكون في إطار عدم الإضرار بالمصالح الوطنية، وفناء الهوية<sup>٣٦</sup>، تقول سارة نوفل: "وارتفع علم المودة (أي الزي الجديد) في ربوعنا حتى راجت بضاعته...وما كان رافعه إلا بعض اللواتي أغمضن الجفن عما يتخلل هذه المودة من الأضرار بالصحة العمومية، وأقدمن بحكم التشبه والتمثيل ببنات جنسهن الغربيات...وبناء على ذلك يجدر بنا نحن الشرقيات أن نقتبس من أدبيات الأجانب ونقتدي بفاضلاتهن...ويجب علينا أن نتخذ من الآن فصاعداً على نبذ كل عادة مضرّة بأجسامنا ومصالحنا"<sup>٣٧</sup>. وتقول هنا كوراني: كيف يسعني السكوت والحالة هذه عن إعراضنا نحن النساء عن بضائعنا وتهافتنا إلى السلع الأوربية كيف كانت بأعلى الأثمان زعمًا بأن هذا مما يزيدنا تمدناً ويكسبنا جمالاً...فلنتحد أيتها الفضليات،

- ٣٤ - ز. ا. ليفين: الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في مصر والشام، ترجمة بشير السباعي، دار شرقيات للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٩٧، ص: ١٦٤-١٦٦.
- ٣٥ - سمير عمر إبراهيم: الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص: ١٨٧.
- ٣٦ - فريدة بستاني: الموضة ومذهب القرنج، مجلة الهلال، القاهرة، س ٩، ج ١٢، مارس ١٩٠١م، ذو القعدة ١٣١٨، ص: ٣٦٦.
- ٣٧ - زينب فواز: الدر المنثور في ربات الخدور، المطبعة الأميرية، بولاق، القاهرة، ط ١، ١٣١٢هـ، ص: ١٤-١٦.

ولنشهد حرباً عواناً ضد هذه البلية... ولنصرف أموالنا في نفع أوطاننا وإحياء دارس صنائعنا وموات بضائعنا، ولنرتدي جميعاً بأنسجة بلادنا"<sup>٣٨</sup>  
عائش حسن توفيق العدل هذه الأحداث، وكان سؤال الهوية لديه أحد أسئلة النهضة والتقدم، يقول: "إني طالما كنت أنزع إلى تعرف أحوال الأمم، واستكشاف ما هم عليه؛ حيث اختلفوا وانقسموا إلى شعوب وقبائل، ودول وممالك، كل سائر على قوانين مختلفة المبدأ، متحدة الغاية؛ التي هي بث الصلاح فيها بين الجامعة... وكنت أقضي بعضاً من الزمان أبحث عن سبب الفرق بين ساكني البسيطة؛ حيث أجد منهم قوماً قد عرفوا المنفعة فساروا واطمأنت نفوسهم ورفع صيئهم، كساكني بلاد أوروبا وغيرهم؛ وقوماً بالضد من ذلك"<sup>٣٩</sup>،

ويتبين من خطب وقصائد توديع حسن العدل في الحفل الذي أقيم له في ٦ سبتمبر ١٩٨٧، قبل الذهاب إلى برلين مدى حضور قضية الهوية والعلاقة بين الأنا والآخر، فتحدث محمد قنري أفندي(؟) وكيل مدرسة النجاح التوفيقي، ومدرس الآداب، عن الشرق الذي كان يؤمه الغير للاقتباس من معارفه وعلومه، وكان الغرب يتقاطر إليه لالتقاط درر فوائده، فصرنا نرحل إليهم بعد أن كانوا يرحلون إلينا، ونحتاج إليهم بعد احتياجهم لنا، وطالبه بخدمة الوطن والانتفاع بالعلوم التي تفيد الهيئة الاجتماعية؛ موضحاً أنه سوف يحل على أرض مباينة له في المشرب والعادة والاعتقاد، وذكر له ثلاثة أمور يجب أن يتخلق بها، وهي: حسن الأدب، وحسن الأخلاق واجتباب الريب<sup>٤٠</sup>، يقول "إن هذا النبيه الذي احتفلنا من أجله سيبرهن للغربيين عن نكاه المصريين، وكمال استعدادهم.... هذه آمالنا فيك، بل هي آمال الوطن فحقها"<sup>٤١</sup> وقال أحمد الحملاوي (١٨٥٦-١٩٢٨):

"وعلم الشرق فانشره بغرب.....وعلم الغرب فاحفظه تجل  
فأهل الشرق ما سمحت ببعد.....وجادت بالنوى إلا لتعلو

٣٨ - هنا كوراني:إنهاض الغيرة الوطنية لترقية البضائع الشرقية، مجلة الفتاة، نشر مؤسسة المرأة

والذاكرة، القاهرة، ج٦، ط٢ ٢٠٠٧، ص:٢٦٧.

٣٩ - حسن توفيق العدل: رحلة حسن أفندي العدل ١٨٨٧-١٨٩٢، ص:٢٧-٢٨.

٤٠ - نفسه، ص:٣٢-٣٣.

٤١ - نفسه، ص:٣٤.

وقد قالت رجال العلم أن لم..... يصبنا وابل منها فطل<sup>٤٢</sup>

بدأت الاختلافات بين الأنا والآخر مع حسن العدل وهو على متن الباخرة التي تُقله إلى الغرب، يقول: "كنت أعاف ما يحضره لي خادم المطبخ في الغذاء والعشاء من اللحوم التي تسبح في دمها حيث لا ينضجونها كما ينضجها المصريون"<sup>٤٣</sup> ونجد العدل يُظهر هويته التراثية فيستشهد بوصف عمرو بن العاص للبحر، ويبرز لنا مدى إلمامه بالمعارف العلمية الحديثه التي قرأها في الكتب وتعلمها من خلال التعليم الهجين في دار العلوم عن فوائد التفاح، وعن ظاهرة تموج البحر<sup>٤٤</sup> ونجده يقارب بين منتزه (سان أندريا San Anderia) بالنمسا ومنتزه (نمرة ثلاثة) بالإسكندرية<sup>٤٥</sup>.

وفي أول يوم في برلين يدرك العدل أنه أنا بين أنات مختلفة، وهو بين هويات متعددة ومتباينة تتميز وتتمايز بمقدار التفاعل فيما بينها، يقول: "ووصلتها يوم الثلاثاء ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٧... فأوصلني إلى المحل الذي أعد لنا للإقامة به، وهو محل في منزل كبير له سيدة رئيسة قائمة بواجبات الساكنين لديها في مقابل دراهم ترفع لها شهريا. ونظرت باقي المحلات مشغولة بسكني أناس أجانب ما بين إنجليزي، وإيطالياني، وفرنساوي، وياباني، ومسكوفي، ويوناني، وأمريكاني. وحين علمت ذلك قلت للنفس: لقد تم بك العدد. وسميت ذلك البيت بالمدرسة المختلطة؛ حيث أغلبهم قاطن ببرلين لتحصيل العلوم بها فهذا يتعلم علوم الرياضة، وذلك يحصل علوم الطبيعة، إلى غير ذلك من تنوع مقاصدهم على حسب تنوع العلوم. ولكن سررت بكوني موجوداً بين أولئك القوم المختلفي الجنس لأعلم من أحوالهم، ومقدار عقولهم ما يدلني على أخلاق وطباع أقطارهم، وأهل جنسهم؛ حيث أن سبر أخلاق كثير مختلفي النوع، ومعرفة ما هم عليه من الطباع والخلاتق والمعاملات؛ هو العلم الأكبر، والفن الأسمى، كما لا يخفى<sup>٤٦</sup>.

٤٢ - حسن توفيق العدل، المرجع السابق، ص: ٤٥.

٤٣ - نفسه، ص: ٦٧.

٤٤ - نفسه، ص: ٦٧-٦٩.

٤٥ - نفسه، ص: ٧٢.

٤٦ - نفسه، ص: ٧٦-٧٧.

فيدرك العدل أن الهوية ذات طابع علائقي متفاعل فاعل مع غيرها، وأن الآخر لا يلغيها بل يُغنيها، ويجعلها قيمة فاعلة منفتحة، لا قيمة جامدة منغلقة، إذا أخذت بشروط وآليات البقاء في ظل قوة الحداثة الغربية وقوة آلياتها، وسوف تتضح هذه الفكرة في مؤلفات حسن العدل وخاصة في مشروعه التربوي.

## ٢- الحداثة والحداثة البرانية:

كان التحديث الذي لحق مصر في القرن التاسع عشر وما صاحبه من تحولات اجتماعية رفعت من المكانة الاجتماعية والثقافية للأفندية؛ سبباً في تشجيع المتفوقين من طلاب المدارس الدينية - الذين أرادوا المساهمة في مستقبل مصر؛ للبحث عن التعليم الهجين<sup>٤٧</sup>، وكان حسن توفيق العدل من هؤلاء الذين تعلموا في الأزهر ثم أصبح أحد أبناء التعليم الدرعي الهجين من التعليم الديني والمدني العصري، لسد الفجوة بين الأفندية والشيوخ<sup>٤٨</sup>

وبالرغم من أهمية التعليم الهجين والذي ساهم في خلق الحداثة في مصر، وأثر في نهضتها كما تشير (هيلارى كالمباخ) إلا أن التحديث الذي عاشه حسن العدل في مصر، وكان أحد أبنائه لم يكن هو ذات الحداثة الغربية في تربتها الأصلية، فلم يكن ذلك التحديث إلا حادثة مستسخة أو حادثة برانية مُقلدة، نقلت الشكل دون أن تفهم الأسس والأصول التي تأسست في ثقافة تختلف في تكوينها ونموذجها المعرفي عن الثقافة الإسلامية والعربية، وكان كل تأثيرها على حسن العدل أن جعلته لا ينبهر بالحداثة كما انبهر بها الطهطاوي في فرنسا في الثلث الأول من ذلك القرن<sup>٤٩</sup>.

لكنه حينما ذهب إلى ألمانيا ما لبث أن أدرك الصدمة الحضارية التي أدرك معها مدى الفجوة الحضارية بين الأنا والآخر، أزمة المبدع والمقلد، يقول: 'دخلت محلاً يقال له بيت الصور والتماثيل يشتمل ذلك البيت على صور وتماثيل المشهورين في العالم بأعمالهم وبعلو قدرهم، أو بعلومهم العقلية، أو النقلية؛ فيقال للمتفرج هذا تماثيل فلان

47 - Hilary Kalmbach: Op.Cit,p;88.

48 - Ibid , p;100.

49 - Ibid , p;94.

الذي أخترع آله كذا التي انتقلت بها الجامعة الإنسانية، وذلك تمثال فلان الذي أقام من اعوجاج أمة كذا وأوصلهم إلى طريق التمدن، وذا هو الذي أخترع كيت وكيت من القواعد العلمية التي أنبنى عليها كثير من المصالح العمومية فيها بين النوع الإنساني، ... ولم يزلوا يقولون لي هذا وذاك، وما هو وهناك وهنا؛ حتى امتلأ مني القلب غيرة وحمية، وكنت في خلال ذلك طامعاً في أن أرى تمثال مصري عمل كذا وكذا أيضاً، حتى أخفف مقدار الغيرة مني؛ فما رأيت، ولا سمعت؛ فزرفت العيون مني بالدموع أسفا وحمية، وصرت لا أدري موطئ قدمي، وما دريت في أي مكان أنا تفكراً أو اندهاشاً مما عراني من الأسف على أبناء الجنس<sup>٥٠</sup>.

يُعبّر هذا النص الذي كتبه حسن العدل في أخريات القرن التاسع عشر عن هشاشة المشروع الحدائي الذي حاول أن يقيمه الطهطاوي ورفاقه، وهو ما يُرجعه لويس عوض (ت: ١٩٩٠) إلى إدارة الحكم التي اهتمت بالتنمية المادية والتكنولوجية ولاسيما لخدمة الأغراض العسكرية، ولم تنتبه لبناء الإنسان<sup>٥١</sup>. وهكذا كانت الحدثة البرانية تُستخدم لضبط الشعب ومراقبته أي لمصلحة الحاكم، وليس لإعلاء قيمة العقل والعلم ومكانة الإنسان وحرية، وقد ظهر هذا جليا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، فحينما تمسكت الحركة الوطنية العربية بال دستور وقف لها الخديوي توفيق، وساعدته القوى الغربية في القضاء عليها، لتخلق من جديد حدثة برانية تخدم الاحتلال والقوى الغربية.

لقد أدرك حسن العدل مع هذه الصدمة أن الحدثة مفهوم ومنهج ونظام شامل، ورؤية في فهم الكون وعيش الحياة، وأنها ليست مجرد نقل المُسميات والمخترعات والتطبيقات الحديثة، بل هي إنتاج مثل هذه الرؤى والنظم والمناهج، والقدرة على المشاركة الفاعلة في هذا العالم الحديث، وهذا هو الفرق الذي يجعل التمايز واضحاً بين الأنا والآخر، يقول: "أتحسب أيها الصديق أن لديهم عصي (موسى) أو طلسم (هاروت) و(ماروت)؟! كلا، وإنما لديهم العقل الذي صرفوه فيما خُلق لأجله،

٥٠ - حسن توفيق العدل: المرجع السابق، ص: ٧٧-٧٨.

٥١ - لويس عوض: تاريخ الفكر المصري الحديث، ج ١، دار الهلال، القاهرة، ط ٣، ١٩٦٩، ص: ٨٤.

وجعلوا له السلطان الأكبر عليهم، واندانوا له وانقادوا؛ فشملمهم بعدله، وغمرهم بهاطل جوده... أم ترى أنهم خُلقوا عارفين عالمين بالفنون والعلوم، وإنما طبع لهم؟ كلا فلقد كانوا، وحقك، في غفلاتهم يعمهون غفلا كباقي الأمم، ولكن لما شعروا بحقوق الإنسانية، وضروريات الحياة، جدوا فوجدوا ، وأخضعوا نفوسهم لكبرياء العلوم، وثقفوا عقول أبنائهم بها، وأدبوهم بقوانينها؛ فأصبحوا وقد أشرب في قلوبهم حبها، وأمتزجت بدمائهم، فما يحدثون إلا عن علم، ولا يتكلمون إلا عن معرفة، ولا يتفكرون إلا عن حكمة<sup>٥٢</sup>.

وبقدر ما كانت الصدمة قوية كان الشعور بالأنا قويا أيضا، والإيمان بقدره المصريين على الأخذ بطريق التعقل، ومعرفة حقائق الأشياء، حتى تصدر عنهم الأعمال التي تنفع وطنهم، وتجعلهم في عداد أصحاب المآثر العلمية والعملية<sup>٥٣</sup>. وراح حسن العدل يدرس الحداثة الغربية ليقف على أساسها، فأدرك أن الحداثة والتمدن الذي هو التحسينات المادية والأدبية اللاحقة لا يتأتى إلا مسبقا بالعقل والابداع والانتاج والمنهج والنظم وأسلوب التفكير والعيش، وهنا يكمن الفرق بين الشرق والغرب<sup>٥٤</sup>. فالغرب كما شاهده حسن العدل متمثلا في ميل الغربيين إلى الحرية وجودة التربية والتعليم والأخلاق وحميتهم الوطنية<sup>٥٥</sup> في تنظيم المرور والنقل، يقول: "وبالهدا من انتظام عجيب صدر عن العمل بالمنفعة والنظر فيما يعود بصالح الأهالي...فما علينا لوقام منا أناس بشركات الحمير والعربات وجعلوا لها قانونا مخصوصا وصرفوا في مصالحها كثيرا من الأهالي"<sup>٥٦</sup>، وفي اهتمام المواطنين بأعمالهم، فأعمالهم متواصلة وتطلب السرعة وعدم الإهمال والإمهال، فلا يهمهم غير أشغالهم، خائفين من ضياع الوقت، وأنعم بذلك من عمران ومن ثم لا تجد إنسانا عندهم عديم الأشغال رجلا أو نساء، غلمانا أو بناتا<sup>٥٧</sup>. رأى

٥٢ - حسن توفيق العدل: المرجع السابق، ص: ١٤١-١٤٢.

٥٣ - نفسه، ص: ٧٩.

٥٤ - نفسه، ص: ٨٧.

٥٥ - نفسه، ص: ٣٧٢.

٥٦ - نفسه، ص: ٢٦٢-٢٦٣.

٥٧ - نفسه، ص: ٢٦٥.



الفرق في بوسطتها<sup>٥٨</sup>، وأسواقها<sup>٥٩</sup>، وعمل النساء والبنات<sup>٦٠</sup>، وجودة الصناعة، يقول: "وإلحاحي من أشياءهم الحديدية فإنهم تقنوا في صنعة الحديد تقنًا لم يسبقهم فيه أمة من الأمم الحاضرة وأقول ولا المستقبل... فتجد المصوغات الحديدية لطيفة، رقيقة، مموهة... وإني طالما قضيت أسفًا على حدادينا الذين من أعمالهم المسامير البلدية ذوات الأرجل، والأكتاف... أقول ذلك غير لائم، كيف وتلك سنة قوم قل فيهم طالبوا الصنائع الكمالية، واكتفوا منها بالضرورة<sup>٦١</sup>.

أعجبه اهتمامهم بالآثار وإنشاء الشركات من أجل ذلك وكشف عن أن الآثار التي أخذوها من مصر تفوق الحصر، وأنهم لو استطاعوا نقل الأهرام لفلعوا، ويذكر كيف كان يُستهزئ بهم ويُحكم بخفة عقولهم، وطيشهم في الطلب، بينما هم كانوا يعملوا وفق علم (الأرخبولوجيا)<sup>٦٢</sup>، وأعجب بفن التصوير، وتحدث عن تاريخه وظهوره في مصر واليونان ثم في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وإنجلترا<sup>٦٣</sup>.

وسوف نجد نقد هذه الحداثة البرانية مع إبراهيم اليازجي الذي ربط تطور اللغة العربية بتطور الصناعة والتقدم الحضاري<sup>(٦٤)</sup>. وهو ما نبه إليه مبكرًا عبد الله فكري في الاتفاق على ألفاظ حسنة من اللغة العربية نستعملها بدلًا من الألفاظ الأجنبية التي أوجبت الضرورة لاستعمالها، لعدم الاتفاق على شيء يسد مسدها مثل فابور، وتران، وكيميالة... إلخ<sup>٦٥</sup>. وسوف نجد نقد الحداثة العربية مع رائدات الحركة النسوية في نهاية القرن التاسع عشر خاصة (هنا كوراني) التي قضت ثلاث سنوات في الولايات المتحدة

٥٨ - المرجع السابق، ص: ٢٦٨-٢٧٠

٥٩ - نفسه، ص: ٢٧٠-٢٧١،

٦٠ - نفسه، ص: ٢٧١،

٦١ - نفسه، ص: ٢٧٣-٢٧٤

٦٢ - نفسه، ص: ٢٧٥-٢٧٧.

٦٣ - نفسه، ص: ٢٨٤-٢٨٦.

٦٤ - إبراهيم اليازجي: اللغة والعصر، مجلة البيان، ٤، يونيو ١٨٩٧، ص: ١٤٥-١٥٠.

٦٥ - عبد الله فكري: رسالة في مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد في النصوص: الشرعية، مجلة روضة المدارس، نمرة (٥) ربيع أول ١٢٩٣هـ، ص: ١٩٨-١٩٩.

الأمريكية، وبحثت مفهوم التمدن وأثر التمدن الحديث على العالم الشرق، فذهبت إلى أن التمدن الأوربي يتأسس على تهذيب عام، ومساواة عامة، وحقوق متبادلة، وما يلحق هذه من الامتيازات المدنية والسياسية والأدبية، وهو أيضًا كناية عن حالة إذا وُجد الإنسان فيها تمكن من إشغال جميع قواه العقلية، بحسب استعداده وأهليته للعمل<sup>٦٦</sup> أما عن التمدن كما رآته في العالم العربي فتقول عنه: قد زلَّ الكثيرون إذ زعموا أنَّ التمدن الحديث هو عبارة عن السكك الحديدية، والأسلاك البرقية، والأنوار الكهربائية، والبواخر، والعجلات، والقصور المنيفة، والأثاث الفاخرة، وما شاكل من دلائل الترف والرفاه؛ فهذه جميعها ليست بالتمدن، بل هي من جملة آثاره، ومن آثار مبادئه ونتائج نظامه، بل هي أيضًا خادمتها في اتساع نطاقه، وامتداد صولته... أما الغلط الذي ارتكبه فريق من البشر، فأحلوا الثوب مكان الجسد، والنتائج مكان الأسباب، والصور مكان المعاني... فهم قوم قد أضعوا ذواتهم في ظلام التقليد، ولاشوا شخصيتهم بحراب التشبه.<sup>٦٧</sup>

### ٣- الأنا في منظور الآخر:

كانت نظرة الغرب للآخر مبنية من منطلق القوة والمركزية الأوربية، فحتى إرنست رينان (ت-١٨٩٢) الذي كان يؤمن بمبدأ القوميات، وفق معيار مشيئة العيش المشترك التي تنمو من التاريخ والآمال المشتركة وتؤدي إلى التضامن بين أفراد الأمة الواحدة، فالأمة عنده مبدأ روحي يقوم على ماضي بطولي وتجارب مشتركة<sup>٦٨</sup> ذهب إلى أن الأمم المحكومة لا تستحق الاستقلال إذا كانت أقل تقدما من الأمم التي تحكمها<sup>٦٩</sup>. هذه الصيغة هي التي حاول اللورد كرومر (ت:١٩١٧) أن يشيعها للقضاء على مبدأ (مصر للمصريين)، وتبرير الاحتلال الغربي، فالمصريون في نظره لا يستطيعون أن يحكموا أنفسهم لأنهم يبنون الحكم على دعائم من العقيدة المحمدية التي عفا عليها الزمن، والتي

٦٦ - هنا كوراني: التمدن الحديث وتأثيره في الشرق، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٤. ص:١١.

٦٧ - نفسه، ص:١٣-١٤.

٦٨- فاروق أبو زيد: أزمة الفكر القومي في الصحافة المصرية، تقديم خليل صابات، ومختار التهامي، دار الفكر والفن، القاهرة، ١٩٧٦م، ص:٢٩.

٦٩ - ساطع الحصري: عصر القوميات، مجلة العربي، الكويت، ٨، يوليو ١٩٨٥م، ص:١٥.

لا تساير أفكار العصر الحديث، والمصريون من قادة جيش ومشايخ الأزهر، وباقي طبقات الشعب بدائيون وذو مواهب ضعيفة، ولا يصلحون لإدارة دولة، ومبدأ مصر للمصريين يستحيل تحقيقه، فالمصريون شعب مستعبد منذ القدم ولم يُحكَم بمصريين إلا في العهود الغابرة<sup>٧٠</sup> يقول: "وحتى في وقتنا الحاضر، لا نجد أن مصلحة المصريين بوجه خاص، ومصلحة العالم المتمدين بوجه عام، تبرر رفعهم إلى المستوى الذي يحكمون فيه أنفسهم ويتمتعون بالسيادة الداخلية"<sup>٧١</sup>.

كانت هذه النظرة لأننا دافعاً للبقاء، والبحث عن الهوية، وقد واجه حسن توفيق العدل هذه النظرة وعاشها مع الغربيين: "طالما شافهني كثير منهم مفتخراً بكثرة سياحاتهم، مدعياً أن المشرقيين لا عزم ولا جأش لهم، فقلما من تجول منهم وساح في البلاد طلباً لوصفها اللهم إلا ابن بطوطة المشهور بسياحته قديماً"<sup>٧٢</sup>.

ووجد العدل الدعم في التراث فوجد في كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد) للقزويني (ت: ٦٨٢هـ) ما يستدل منه أن أبا بكر محمد الأندلسي الطرطوشي (ت: ٥٢٠هـ) قد ساح في بلاد ألمانيا ووصف بعضها منها يقول: "فكدت أتبه عجباً وفخراً حيث زادني دليلاً على ما قامت به أمة العرب في القرون الأولى والمتوسطة من توسيع نطاق علمي الجغرافية والتاريخ، وصار لي حجة على أهل أوروبا"<sup>٧٣</sup>. كذلك ساندته التراث حينما وجد الألمان يعظمونه في متاحفهم حيث وضعوا تماثيل المصريين القدماء في متحف مدينة (منيك)<sup>٧٤</sup>، وخصصوا في الانتكخانة الجديدة قسم مخصوص لمصر وهو أهم الأقسام لديهم<sup>٧٥</sup>، وافتخر حسن العدل بالتراث؛ فأول من اخترع الساعات وسيرها بالطروس في

٧٠ - لورد كرومر: الثورة العربية، ترجمة عبد العزيز عرابي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،

١٩٩٧، ص: ٢٢٧-٢٣١.

٧١ - نفسه، ص: ٢٣١.

٧٢ - حسن توفيق العدل: كتاب رسائل البشرى في السياحة بألمانيا وسويسرا، المطبعة الأميرية الكبرى،

القاهرة، ط ١، ١٨٩١، ص: ٢١-٢٢.

٧٣ - نفسه، ص: ٢١-٢٢.

٧٤ - نفسه، ص: ٤٨.

٧٥ - حسن توفيق العدل: رحلة حسن أفندي العدل، ص ٢٨٧

القرن الثالث عشر الميلادي، هم العرب ولا فخر<sup>٧٦</sup>. وهم من اهتموا بالتزيين والتزيين في الأبنية والأقمشة حتى صارت لهم الشهرة في أوربا؛ فأطلقوا على كل متقن الزينة لطيفاً قولهم أرابك (Arabesques)<sup>٧٧</sup>.

ولكن هذا الاحتماء والاحتجاج بالتراث لم يغن عن نقد واقع الأنا متفقاً مع قاسم أمين (١٨٦٣-١٩٠٨) في أن من يهمهم إصلاح الأمة من أبنائها الذين يتفكرون في الطرق اللازمة لإخراجها من حالها، ونقلها إلى حال آخر؛ أن يكشفوا لها الستار عن عيوبها جميعها مهما كانت مرة المذاق أو مخجلة،<sup>٧٨</sup>. فقد وجد العدل أن الغرب أكثر اهتماماً بالتراث من أهله، وخاصة التراث الفلسفي والعلمي: "واني لأجد أغلبهم الآن يؤلفون في العلوم الفلسفية العربية التي صارت عندنا نسياً منسياً"<sup>٧٩</sup>، وفي التراث العلمي وجد أن الأوربيون لا يزالون دائبين على طبع كتب التراث العلمي وتدرسيها وترجمتها، كجغرافية ياقوت، وأبي الفدا، وابن الفقيه الهمداني، وأبي القاسم بن خرداذبه، والمقدسي، وقدامة الكاتب، الذين اشتهروا لدى علماء أوربا بجميع المدارس العليا، كاشتهار علماء النحو بين طلبة الجامع الأزهر العامر<sup>٨٠</sup>. يقول: "ولست ترى عالماً جغرافياً أو تاريخياً بقرارة أوروبا إلا ولديه علم بتلك الكتب إن لم نقل بما حوته، ولم أقصد سادتي بجديتي هذا تشدقاً، كلا بل بعثاً من نشاطكم، وتنبهياً من التفاتكم نحو ما قامت به أسلافكم، وتعبوا لأجله، وواصلوا الأيام بالليالي في رقمه، أكان عبثاً ما جاءوا به، حتى نتركه وراءنا ظهيراً أم لعباً فنهنأ به! ألم نكن نحن الجديرين بأن نقدر لأسلافنا قدر أعمالهم فنبحث وننقب عنها وندرسها، فنعلم ما هدونا إليه، وننسج على منوالهم ونتمم مشروعاتهم! تلك أعمالهم وتآليفهم بين ظهرانينا في كل فن وعلم، ولكن وا أسفاه! نراها ميتة في جلودها لا تجد لها باعاً لروحها، أو مطالعاً لأسطرها، أو طابعاً لها! ألم يكن

٧٦ - حسن توفيق العدل: رسائل البشرى في السياحة بألمانيا وسويسرا، ص: ٥٠.

٧٧ - حسن توفيق العدل: رحلة حسن أفندي العدل، ص: ٢٨٧.

٧٨ - قاسم أمين: أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ، طبع على نفقة على أفندي الخطاب، مطبعة جرجي غرزوري، الإسكندرية، ١٩١٣م، ص: ٢١.

٧٩ حسن توفيق العدل: رحلة حسن أفندي توفيق العدل، ص: ٩١.

٨٠ - حسن توفيق العدل: رسائل البشرى في الساحية بألمانيا وسويسرا، ص: ٥٤-٥٥.

طبعها أولى من طبع ثلاثين جزءاً من قصة عنتره بن شداد، وأبي زيد الهلالي وسلامة، والوزير سالم، وخضرا الشريفة، وغير ذلك مما لا يفيد العامة إلى تأخرها في المدنية والآداب<sup>٨١</sup>.

كانت الحدثة الغربية عاملاً محفزاً لنقد الذات، وفي الوقت نفسه جعلت العدل يدرك أن التراث جزء من مكونات الهوية ويجب أن يتم التفاعل معه بحيث يكون أساساً فاعلاً في عملية التقدم، كما أن الحدثة ليست بالضرورة تتنافى مع التراث، فلا يعني الأخذ بالحدثة التنازل عن التراث، ولعل هذا الأمر قد عبر عنه بعد ذلك طه حسين (ت: ١٩٧٣) عندما عبر عن هوية الثقافة المصرية بأنها هي هذه العناصر المختلفة والمتناقضة فيما بينها من التراث المصري الفني القديم، والتراث العربي الإسلامي، وما كسبته مصر وتكسبه كل يوم من خير ما أثمرت الحياة الأوروبية الحديثة، تلتقي في مصر فيصفي بعضها بعضاً، ويهذب بعضها بعضاً وينفي بعضها من بعض ما لا بد من نفيه من الشوائب التي لا تلائم النفس المصرية. فينتج عن ذلك ثقافة مصرية إنسانية قادرة على أن تغذو قلوب الناس وعقولهم وتخرجهم من الظلمة إلى النور<sup>٨٢</sup>.

#### ٤ - من الأنا إلى النحن:

في كتابه البيداجوجيا كتب حسن العدل عنواناً لافتاً هو: (تذييل في الأنا والنحن) قال تحته: "أعلم أن الفلاسفة المتأخرين يعبرون عن شعور الإنسان بنفسه وبجسمه بضمير المتكلم جاعلينه اسماً ظاهراً ويدخلون عليه أداة التعريف فيقولون الأنا وعن شعور الإنسان بنفسه مع غيره بقولهم النحن"<sup>٨٣</sup>. وعن النحن قال: "متى تكمل حصول الأنا يرى أنه محاط بأنات أخرى غريبة عنه وحينئذ يعتبر أفرادها أعداء له، ولكن بواسطة كثرة المعاشرة يرى أن لتلك الأفراد تصورات تماثل تصوراتهِ وخواص كخواصه فيميل إليها بطبعه، وفي هذه يشعر الطفل بمدلول النحن، والتربية حينئذ تكسبه كيفية

<sup>٨١</sup> - حسن توفيق العدل، المرجع السابق، ص: ٥٥.

<sup>٨٢</sup> - طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩٣٨، ص: ٣٩٣-٣٩٤.

<sup>٨٣</sup> - حسن توفيق العدل: البيداجوجيا، ج ١، ص: ١٩.

معاملة أفراد الأناث وبها يتعلم أن للنحن دوائر يجوزها شيئاً فشيئاً فيقول: نحن الأشقاء ثم نحن التلامذة ثم نحن الأصحاب ثم نحن المصريين ثم نحن المسلمين ثم الناس"<sup>٨٤</sup>.

وأرى أن حسن العدل أراد أن يؤسس من خلال نصوصه لعلاقة إنسانية مع الغير الذي أطلق عليه (النحن)، فالغير عنده هو نحن مع البقاء على الدوائر التي تحفظ خصوصية الأنا ولا تفقدها هويتها وخصوصيتها وثوابتها ومشخصاتها، وقد آمن حسن العدل بهذا المبدأ وجعله أساساً ومحوراً للتربية التي هي آلية الإصلاح في مشروعه التنويري يقول: "يجب على المعلمين وأولي أمر التربية أن ينبهوا من التفات الناشئ إلى معرفة تلك الدوائر والأخذ بأداب كل منها حتى يجوزها وليس لديه علم بمدلول كلمة ال (هو) أو ال (هم) اللهم إلا في موضوع الحكاية والإخبار؛ ليعلم أنه عضو عامل لمجموع الأناث فيحرص على إيصال المنفعة إليه، ولا ازديكم علماً بأهمية ذلك الموضوع فأديروا عليه محوره دائرة التربية والتعليم"<sup>٨٥</sup>. وقد انتقد حسن العدل جان جاك رسوا الذي جعل تلميذه يعتزل الناس إذ رأى أن الإنسان مفطور على الخير ومن ثم فاختلفه بالناس يكسبه الشر وضميم الأخلاق، فانتقد العدل هذه الطريقة ورأى أنها مغايرة للحقوق الإنسانية عقيمة النتيجة، لأن التربية تهدف إلى إعداد الإنسان لنفع نفسه ونفع الهيئة الاجتماعية وهذا لا يتم إلا بالمخالطة والمعاشرة حتى يكمل التعارف<sup>٨٦</sup>، وكلمة التعارف أستفادها حسن العدل من النص القرآني، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ وهو خطاب لتأسيس هوية منفتحة على الآخر، وليست منغلقة.

وانطلاقاً من هذه النصوص فقد أراد العدل أن يتجاوز النظرة إلى الآخر في أن يحصره في العدو المخالف، أو تلك النظرة التي تجعل تجعل العلاقة مبنية على مبدأ هذه بضاعتنا ردت إلينا، فلم يقف كالمصلح الديني - كما لا حظ أحمد براقوي - ملحاً على أن الغرب قد أخذ العلم عن الشرق والإسلام وطورها، دون أن يبحث عن الأسباب

<sup>٨٤</sup> - حسن توفيق العدل: المرجع السابق، ج ١، ص: ٢٠.

<sup>٨٥</sup> - نفسه، ص: ٢٠.

<sup>٨٦</sup> - نفسه، ص: ٥٩.

التي جعلت العلم متقدماً في الغرب<sup>٨٧</sup> بل نظر إليه نظرة المتأمل والمتعلم مفضلاً المنهج الاصلاحى التربوي، مثل حسين المرصفي على النهج الراديكالي الذي اتخذه جمال الدين الأفغاني، ولا يعني ذلك عنده إلغاء خصوصية الهوية بل يعني انفتاحها على تجارب أخرى تغنيها، فكل تثببت إطلاقي للهوية وجعلها معياراً مرجعياً ناجزاً نهائياً طوال تاريخ مجتمع من المجتمعات، هو رؤية تجميدية لا تاريخية وغير موضوعية لهذا المجتمع، فليست ثمة استمرارية لهوية ثابتة جامدة محددة طوال التاريخ، فالهوية ليست أقنوماً ثابتاً منجزاً جاهزاً نهائياً، بل هي مشروع متطور فاعل، مفتوح على المستقبل، والتطور والتفاعل للهوية، لا يلغيها بل يغنيها، ويجعلها قيمة فاعلة لا قيمة جامدة راكدة<sup>٨٨</sup>.

### ثالثاً: الوطنية وثوابت الهوية:

كان العلماء الذين قادوا ثورة القاهرة ضد الفرنسيين في ١٧٩٨، ثم ساندوا محمد علي في ١٨٠٥، تسير لديهم فكرة الأمة الإسلامية جنباً إلى جنب مع فكرة القومية المصرية<sup>٨٩</sup>، وبرغم أن حب الوطن شعور متجذر عند المصريين كما لا حظ كلوت بك (ت-١٨٦٨): "لا يوجد بين مخلوقات الله من يذهب المذهب البعيد في حب مسقط رأسه كالمصريين"<sup>٩٠</sup> فإن التحولات المؤسسية التي اقتضتها إنشاء الدولة المصرية الحديثة مثل تعيين المصريين مأموري المراكز، وإدخالهم كجنود في الجيش<sup>٩١</sup> قد أحدثت تغييرات

٨٧ - أحمد براقوي: محاولة ف يقرأة عصر النهضة (الإصلاح الديني - النزعة القومية) الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط٢ و ١٩٩٩، ص: ٦٣.

٨٨ - محمود أمين العالم: الفكر المصري بين الخصوصية والكونية، دار المستقبل العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٨، ص: ١٦-١٧.

٨٩ - ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨٦، ص: ٢٣٥.

٩٠ - أ.ب. كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ترجمة محمد مسعود، تقديم أحمد زكريا الشلق، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١، ص: ٢٩١.

٩١ - لويس عوض: تاريخ الفكر المصري الحديث، ج٢، سلسلة كتاب الهلال، دار الهلال، ط٣، أبريل ١٩٦٩، ص: ٨٩-٩٢.

جذرية في المشهد السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي المصري. منها التغيرات الهيكلية للنخب في مصر، من المصريين العثمانيين إلى المصريين كأعيان محليين، وهو ما أفضى إلى تصعيد أقرابهم في الجيش والبيروقراطية المركزية، وأخذت مكونات الهوية الثقافية المصرية العربية تحل محل المكونات العثمانية؛ الأمر الذي معه اندمج المسؤولون المولودون في مصر بشكل متصاعد في صفوف النخب<sup>٩٢</sup>، وبعد حركة خفض أعداد الجيش في سنة ١٨٤٨م، أخذ الشبان الذين تلقوا تعليمهم في أوروبا بعد عام ١٨٤٩م يتولون المناصب التي كانت مقصورة من قبل فقط على القادة والضباط الأتراك، وإضافة إلى ما سبق فقد أسهمت المدارس الحديثة التي أسسها محمد علي باشا، وتوسّع فيها الخديوي إسماعيل<sup>٩٣</sup> - سبيلاً للمصريين الخُص للنتقل إلى الأعلى، وقد أسهمت هذه العوامل في وجود الإحساس بالهوية القومية المصرية بين أبناء الطبقات الاجتماعية المتوسطة والعليا في مصر<sup>٩٤</sup>.

وقد ساهمت الكتابة التاريخية كذلك في بعث الشعور بالهوية الوطنية المصرية فكتب رفاعه الطهطاوي كتاب (أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل) تحدث فيه عن تاريخ مصر منذ القدم وعن اسبقيتها في التمدن فمصر لها الأهمية الكبرى، في سائر الحوادث، ولها الامتياز الأوفر قديماً وحديثاً فكأنها قارة كاملة على حدتها<sup>٩٥</sup>، وتحدث في (مناهج الألباب المصرية في مباحج الآداب العصرية) عن مصر الوطن ودورها في التاريخ وتقدمها<sup>٩٦</sup>، وأكد أنّ مصر بما لها من عمق حضاري وموقع جغرافي، تستطيع أن تأخذ دورها الحضاري إذا ما إذا ما تأصلت في أبنائها الوطنية، مع

92 - Parnell. Matthew Blair, Youth...Power...Egypt: The Development of Youth as a Sociopolitical Concept and Force in Egypt, 1805-1923(Unpub. Ph.D dissertation, . University of Arkansas ,August 2016) p:170.

٩٣ - روبرت هنتر: مصر الخديوية ونشأة البيروقراطية الحديثة، ترجمة بدر الرفاعي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص:٩٩.

94- Parnell. Matthew Blair; Op.cit, p:171.

٩٥ - رفاعه الطهطاوي، الأعمال الكاملة ج ٣، دراسة وتحقيق محمد عمارة، مكتبة الإسرة، القاهرة، ٢٠١٠، ص:٢٧-٣١.

٩٦ - رفاعه الطهطاوي: الأعمال الكاملة، ج ١، ص:٣٠٨-٣٢٤.



الأخذ بعلوم الحدثة الغربية<sup>٩٧</sup>. وفي كتابه نُخبة الفكر في تدبير نيل مصر شرع علي مبارك في بيان أهمية مصر ودورها في التاريخ، وأنّ تقدمها لم يكن إلاّ بيد أبنائها، وأنها لما خرجت من قبضتهم وتولاها عسف الفاتحين وجور المتغلبين تلاشت عمارتها<sup>٩٨</sup>. عاش حسن العدل هذه التحولات وكان من أهم الرواد الذين دعوا إلى فكرة الوطن وتأكيد قيمة الوطنية المصرية قولاً وعملاً فكانت أساس من أسس فلسفته الإصلاحية.

### ١- الوطنية المصرية ودوائر الانتماء:

إن دائرة الوطنية المصرية عند حسن توفيق العدل هي الدائرة المركزية التي على أساسها تتحدد العلاقة مع الأغيار وباقي الدوائر، ففي البدء نحن المصريون ثم- نحن العرب والمسلمين ثم نحن الناس<sup>٩٩</sup>، على هذا المبدأ تأسست أفكاره، وأقام مشروعه التنويري التربوي. وهو الأمر الذي لم يكن يسيراً في القرن التاسع عشر، فقد شهدت مصر والعالم العربي والإسلامي في العقود الأخيرة من ذلك القرن دعوات كثيرة خلقت حالة من التشطي والارباك، وطُرح سؤال الهوية والانتماء على مائدة الرأي العام، فظهرت أطروحات مثل فكرة الجامعة الإسلامية التي اتخذت أكثر من منحى، وفكرة القومية العربية، والدولة القومية، وزخرت الصحافة وقتها بالعديد من الأقلام فراح فريق منها يدافع عن الجامعة الإسلامية، مثل جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده<sup>١٠٠</sup>، على صفحات العروة الوثقى، ومحمد رشيد رضا على صفحات المنار، وآخر يدعو إلى تأصيل الوطنية المصرية مثل يعقوب صنوع على صفحات أبو نظارة زرقا، وعبد الله النديم على صفحات مجلة الأستاذ، إضافة إلى جريدة الوطن وجريدة مصر<sup>١٠١</sup>.

٩٧ - رفاة الطهطاوي: الأعمال الكاملة، ج١، ص: ٣١٩-٣٢٠.

٩٨ - علي مبارك: نخبة الفكر في تدبير نيل مصر، مطبعة وادي النيل العربية والإفريقية، القاهرة، ط١، ١٨٧٩، ص: ١٨٠.

٩٩ - حسن توفيق العدل: المرجع السابق، ص: ٢٠.

١٠٠ - تباينت مواقف الأستاذ الإمام بين تأييده للفكرة الوطنية عندما كان يدعو إلى النهوض بالمجتمع المصري وإصلاحه، وبين تأييد لفكرة الجامعة الإسلامية ويبدو أنه كان يرى انه يمكن وجود صيغة لا تتعارض معها فكرة الوطنية مع فكرة الجامعة الإسلامية.

١٠١ - أمانة حجازي: المرجع السابق، ص: ١٩٨-٢٠٨.

كان توفيق العدل واقعياً، تمثلت الواقعية عنده في مبدأ (المنفعة الوطنية) الذي يمثل الأصل الأول في الإصلاح عنده، وقد استفاده من شيخه<sup>١٠٢</sup> حسين المرصفي الذي طرحه في رسالة الكلم الثمان<sup>١٠٣</sup>، ويشرح العدل معنى المنفعة بقوله: "كلمة "المنفعة" سادتي، أعني بها المنفعة الوطنية، التي يجدر بنا أن نعرفها بأنها هي الحاجيات والكماليات التي يحتاجها الوطن، التي غايتها أن تسير الناس سيراً يجدون أنفسهم فرحين بما لديهم بما لديهم، مطمئنين آمنين على انفسهم وأعراضهم وأموالهم؛ بحيث يكون وطنهم معتبراً كمنزل واحد"<sup>١٠٤</sup>.

لقد تشرب حسن توفيق العدل الفكرة الوطنية بتأثير مباشر من أستاذه حسين المرصفي الذي رأى ضرورة غرسها في الناشئة، كأصل من أصول التربية، يقول: "وعلى سائر المعلمين أن يلهجوا بكلمة الوطنية ويحاولوا التحقق بمعناها ويجعلوها أساس تعاليمهم وارشاداتهم ومواعظهم في تأليف القلوب وتقوية أسباب الاجتماع الحقيقي، الذي به تستحق أن يقال عليها وطن حقيقي لا مجازاً"<sup>١٠٥</sup>. ومن ثم فبيننا نجد في كتاباته إظهار الفضل للخديوي توفيق الذي أعلن عن إيمانه بالجامعة الإسلامية على النسخة العثمانية، وإعادة مصر لحظيرة الدولة العثمانية<sup>١٠٦</sup>، فإن حسن توفيق العدل كان ينتمي فكرياً وعملياً للقومية المصرية وروحها المتمثلة في الثورة العربية وثورة الجيش المصري لتمصير قيادته، والمناصب العليا في الدولة، والحكم الدستوري. وبحسب (تيموثي ميتشل) فإن لغة وتفكير القيادة الوطنية للثورة العربية كانت منعكسةً في رسالة الكلم الثمان<sup>١٠٧</sup>.

١٠٢ - حسن توفيق العدل: رحلة حسن افندي توفيق العدل، ص: ١١٦.

١٠٣ - حسين المرصفي: رسالة الكلم الثمان، تقديم وتحقيق أحمد زكريا الشلق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ص: ١٢٣-١٣٠.

١٠٤ - حسن توفيق العدل: المرجع السابق، ص: ١٠٥.

١٠٥ - حسين المرصفي: المرجع السابق، ص: ١٦٣-١٦٤.

١٠٦ - يواقيم رزق مرقص: مقدمة كتاب: اللورد كرومر: الثورة العربية، ترجمة عبد العزيز عرابي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧، ص: ٩.

١٠٧ - تيموثي ميتشل: إستعمار مصر، ترجمة بشير السباعي وأحمد حسان، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط٢، ٢٠١٣، ص: ٢٢٥.

ومن ناحية أخرى كان لمعايشه حسن العدل للحدثة الغربية وإطلاعه على التاريخ الأوربي الحديث والمشاركة في التأريخ له، دوراً في تأكيد هذا المنحى الوطني الواقعي، فقد شاهد ميل الغربيين إلى الحرية وجودة التربية والتعليم والأخلاق وحميتهم الوطنية<sup>١٠٨</sup> وحرص مدرسي الألمان على إلقاء محبة الوطن في قلوب التلامذة، وتنمية الحس الوطني من خلال معرفة آثارهم الوطنية، ومعرفة أعدائهم<sup>١٠٩</sup>.

وبينا شهد توفيق العدل الشيخ حمزة فتح الله(ت-١٩١٨)-التونسي الأصل- يتهم أستاذه وشيخه حسين المرصفي بأنه خائن أثيم ويطالب بطرده من دار العلوم، ويصف عرابي بالخيانة والجهل وأنه خاطر بدماء المسلمين ودمهم وأعراضهم وكذلك فعل بشارة تقلا (ت-١٩٠١)صاحب جريدة الأهرام فبعد أن أقسم أنه واحد من العرابيين وأنه يعمل لحرية الوطن، خاطب عرابي بعد الهزيمة بأقذع الألفاظ<sup>١١٠</sup>. رأى الألمان يكرمون الوطنيين والعلماء الذين خدموا الوطن<sup>١١١</sup>. ويعجب بحفظهم لأعمال عظماء أوطانهم مثل( يوهان جوته Johann Goethe ت-١٨٣٢) الذي كان تدريس أشعاره وأعماله في المدارس<sup>١١٢</sup> وتعظيمهم (لبسمارك Otto von Bismarck)الزعيم الوطني الألماني<sup>١١٣</sup>. ويذكر العدل أنه وهو في برلين ظل يتفكر في كيفية الطريق التي يسلكها معلموا مدارسهم في بث حب الوطن في عقول أبنائهم حتى دخل إحدى المدارس فوجد أحد المعلمين مع التلامذة يترنمون بتلاوة شعراً باللغة الألمانية<sup>١١٤</sup>، يقول: "وحيثما فهمت معنى ما يتلون من الأشعار أخذني الطرب حتى كدت أكون من الراقصين، ولكن لا على توقيع النغمات، بل على توقيع المعنى الذي شرح مني الصدر...حيث كانت تلك الأشعار الموضوعة لتعليم التلامذة حب الوطن"<sup>١١٥</sup>.

١٠٨ - حسن توفيق العدل: رسائل البشرى في السياحة بألمانيا وسويسرا، ص: ٣٥.

١٠٩ - حسن توفيق العدل: رحلة حسن افندي توفيق العدل، ص: ٢٥١.

١١٠ - يواقيم رزق: المرجع السابق، ص: ١١-١٢.

١١١ - حسن العدل: المرجع السابق، ص: ١٤٤-١٤٥.

١١٢ حسن توفيق العدل: رسائل البشرى في السياحة بألمانيا وسويسرا، ص: ٢٣.

١١٣ حسن توفيق العدل: رحلة حسن افندي توفيق العدل، ص: ٢٣١-٢٣٦.

١١٤ - نفسه، ص: ١٥٦.

١١٥ - نفسه، ص: ١٥٧.

وقد ترجم العدل عن قصد هذه الأبيات إلى شعر عربي نصه:  
وإذا القلوب تصادقت وتآلفت \*\*\* منا وكنا جميعنا إخوانا  
حتى نصون بلادنا ونشيد من \*\*\* أركانها ونعزز الأوطانا  
فتكون ارفع في الأنام مكانة \*\*\* وأعز من بين الورى سلطانا  
ما بين ماس وبلد إتش وميمل \*\*\* وطن فلا زلنا به ألمانا<sup>١١٦</sup>.

وقد استخدم العدل هذه الطريقة ودعا في كتاباته التربوية إلى تأليف القصائد في مكارم الأخلاق، وحب الوطن والفخر به<sup>١١٧</sup>، وهو الأمر الذي انتهجه الزعيم الوطني(مصطفى كامل) فيما بعد في مجلة (المدرسة) والتي حوت باباً مخصصاً للأناشيد الوطنية<sup>١١٨</sup>.

## ٢- مفهوم الوطن:

يعرف توفيق العدل الوطن بقوله: الوطن هو جزء من الأرض تتخذه أمة من الأمم مسكناً لهم، والمراد به هنا ما يشمل ذلك الجزء وساكنية، والحالة التي هم عليها<sup>١١٩</sup>، ويوضح العدل قوله ما يشمل ذلك الجزء وساكنية والحالة التي هم عليها، من خلال توضيحه لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "حب الوطن من الإيمان"؛ فليس معناه حب قطعة الأرض فقط، بل المراد منه أيضاً ما يعم القاطنين به وأحوالهم، بدليل أن المقصود من الحديث ما ينشأ عن حب الوطن، وهو إيصال المنفعة، وتوطيد دعائم السعادة به<sup>١٢٠</sup>.

وإذا كان الوطن هو قطعة الأرض؛ فإن الوطنية وهي حب الوطن لا تتحقق إلا بأداء خدمة الوطن وعمارته، وتحقيق مصالحه ومن ثم تحصيل المنافع المشتركة يقول: "الوطنية هي حالة طائفة من الأمة يجمعهم جزء مخصوص من الأرض؛ لامضاء

١١٦ - حسن توفيق العدل: المرجع السابق، ص: ١٥٩.

١١٧ - حسن توفيق العدل: البيداجوجيا، ج٢، ص: ٢٠.

١١٨ - مصطفى كامل: اوراق مصطفى كامل (المقالات - الكتاب الأول) تحقيق وأشرف: يواقيم رزق مرقص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦، ص: ٥٤-٦١.

١١٩ - حسن توفيق العدل: رحلة حسن افندي توفيق العدل، ص: ١١٣.

١٢٠ - نفسه، ص: ١١٣.

مقتضيات الطبيعة، وحصولها طبيعي بحكمة احتياج أفراد الإنسان إلى التعاون في حصولهم على حاجياتهم وكمالياتهم<sup>١٢١</sup>.

وبداخل دائرة الوطنية يرى العدل أن اضطراب العلاقة بين أبناء الوطن (الشعب والحكومة) هي الأساس في تأخر الأمة أو تقدمها، فبعد أن يرى أن مجموع الأمة يتقسم إلى طائفة تزرع، وأخرى تصنع، وقوم يوصل منافع الطائفتين لبعضهما، ثم حكومة تسهل مقاصد تلك الجماعات وتذب عنها وتحفظ حدود كل منها، وبعد أن تابع أرسطو في تقسيمه للحكومات إلى إمبراطورية مقيدة أو مطلقة، أو إمارة يكون فيها الأمر لرجال منتخبين من الأعيان والنبلاء، أو جمهورية، مفضلاً مثل أستاذه المرصفي الملكية المقيدة، حيث رأى أن الملكية المقيدة أفضل بحكم التاريخ، وقد تتساوى مع المطلقة أو الإمارة إذا عمل أولوا الأمر على ترقية شعوبهم، ففساد هذه الحكومات يأتي من تغليب المصلحة الخاصة وجعل الهيئة الاجتماعية آلة لمطامعهم، ورأى في الحكومة الجمهورية أنها تفسد بسبب وقوع الحسد والتنافر بين الفقراء والمتمولين وحب الكل للرئاسة<sup>١٢٢</sup>

فهمة الحكومة هي تسهيل مقاصد جميع فئات الشعب وتعيين حدود كل منهم، وبث الأمن فيما بينهم كيلا يتعدى بعضهم على بعض، وحماية الوطن ممن يقصده بسوء داخلًا كان أو خارجيًا، والقيام بما يؤدي ذلك وهو التربية والتأديب والتعليم، وحق المعاملة بين فئات الشعب وطوائفه يجب أن يكون منظورًا فيها إلى المنفعة العامة، صادرة عن المحبة والتآلف، ويكون الكل عضوًا عاملاً قائمًا بوظيفة جسم هو (الوطنية) سائرًا في خدمته، فلا يرفع من قدر الخاصة لكونهم أولى رفاهية، بل لكونهم نافعين قائمين في خدمة العامة، كما لا تحترم اليمين لكونها يمينًا بل لكونها عضوًا نافعًا<sup>١٢٣</sup> :وليعلم الذين بيدهم آزمة الحكم أن القدرة التي أوتوا نصيبًا منها لم تكن إلا لنشر العدل، وبث الخير ورفع الضر عن الرعية، فهم الوكلاء وأمناء الله عليهم لفلاح الرعية وليست الرعية لراحتهم، وليعلم الخاصة أنهم قدوة للعامة فلا يأخذهم الكبرياء والعظمة...وليعلم

١٢١ - حسن توفيق العدل: البيداجوجيا، ج١، ص:٥٥.

١٢٢ - نفسه، ص:٥٥-٥٦.

١٢٣ - نفسه، ص:٥٦.

العلماء أنهم أدلاء الأمة بهم تهتدي العامة، وتقتدي الخاصة فليكونوا من الناس أحب إليهم من أنفسهم لكي يتم الاهتداء ولاقتداء، وليستعملوا علمهم فيما وضع إليه وهي المنفعة العامة<sup>١٢٤</sup>.

أي أن حالة الانتماء والوطنية لا تتحقق إلا بالعدل وإحساس المواطن بإنسانيته وكرامته، ولعل هذا خلاصة ما كانت تريده أو عبرت عنه الثورة العرابية.

### ٣- آليات بث الهوية الوطنية:

يقول حسن توفيق العدل: "وحيث كان المقصود من تعلم الأبناء صرفهم إلى منفعة وطنهم، وقيامهم بأداء حقوق مجتمعهم، وجب أن يكون التعليم ملحوظا فيه تلك الغاية للمعلمين والمتعلمين؛ وإلا فلا يفيد التعلم والتعليم إلا تعب الأجسام، وضياح الاوقات، وصرف الدراهم والدينار... إذا علمت ذلك فأعلم أن أول واجب: أن يكون المعلمون عارفين الغاية المقصودة من عملهم... فليأخذ سيرهم في التعليم طريقاً محموداً، ويزيد مقدار اجتهادهم. وهذا ولا أجد طريقة توصل إلى هذا الغرض أحسن من أن تُعلم الأبناء معنى الجامعة الوطنية"<sup>(١٢٥)</sup>.

وقد انطلق العدل من التنظير إلى التطبيق وبث في كتابه البيداجوجيا - الذي أقرت نظارة المعارف وطبعته في ديسمبر ١٨٩٠ - هذه الروح الوطنية، وتمثل مشروع حسن توفيق العدل في بث الهوية الوطنية من خلال التربية والتعليم في عدد من الآليات منها:

### أ: تاريخ الوطن :

دراسة تاريخ الوطن عند حسن العدل أحد اهم آليات بث الهوية الوطنية، بل هي أحد اسباب نهضتها فعنده أن الأمة متى جهلت نشأتها ونموها وأسباب هبوطها وصعودها لجديرة بالتأخر، ضرورة أن الجهل بطبيعة الدولة، وبما كانت عليه في الزمن الأول، وبكيفية تدرجها السياسي والأدبي داع إلى الحيرة في تعهدا وضبطها وإقامة دعائمها وإلى الخبط وعدم الثبات في سياستها وإلى غير ذلك مما يهبط بالأمة إلى الحضيض<sup>١٢٦</sup>.

١٢٤ - حسن توفيق العدل: المرجع السابق، ص: ٥٦.

١٢٥ - حسن توفيق العدل: رحلة حسن افندي توفيق العدل، ص: ١٦٢-١٦٣.

١٢٦ - حسن توفيق العدل: البيداجوجيا، ج٢، ص: ٧٩.

وينتقد حسن العدل قصر دراسة التاريخ في تاريخ الساسة، وتاريخ الحروب والمواقع، وينتقد كذلك التاريخ الحولي، فدراسة التاريخ لديه يجب أن تؤسس لبعث الحياة وبناء الذات وتثبيت الهوية الوطنية، يقول: "المقصود من تدريس التاريخ للناشئة ليس مجرد سرد الحوادث والنوادر والمعارك والحروب وتعدد الأسماء وذكر الأعداد بل كما نقصد أن نطلعهم على ما جريات أسلافهم، نحبي حياة الأمة في صدورهم ونلقى حب الوطن في قلوبهم، ونبعث من جاشهم وتوسع من نطاق تخيلهم وننبه من التفاتهم إلى ما قام به أسلافهم من العلوم والصنائع والمعاملة والتجارة، ويكون ذلك ببعث التفاتهم إلى الأسباب والنتائج وإلى فضائل الأعمال ورذيلها، ووصف أخلاق الرجال حسنًا وسيئًا وتقبيح القبيح وتحسين الحسن، والافتخار بشجاعة الأبطال وجسارة الرجال، وعدل العادلين وهم الكاملين، وأخذ آرائهم في ذلك كله"<sup>١٢٧</sup>. ولذلك نجده ينبه على ضرورة الإطلاع على فلسفة التاريخ، وتأكيد المنحى العقلي في دراسة التاريخ لتنتقيه من الخرافات والأوهام التاريخية، وكل ما ينافي قوانين العقل والطبيعة"<sup>١٢٨</sup>.

ويستوى عند العدل في دراسة التاريخ الذكور والإناث، فإنهن كالذكور شغوفات طبعًا بالاطلاع على ما يقوي من شجاعتهم ويزيد في جاشهن؛ ولكن ذهب إلى أنه يحسن أن نجعل مهمات أخذهن بالتاريخ فضائل النساء من الصدق والعفاف والأمانة والبرقة والحنان وآداب المنزل، ويكون ذلك بتعويدهن على تلك الفضائل، وعرض ما لائم ذلك من التاريخ عليهن؛ ليكون لهن مثالاً ونموذجاً؛ بخلاف أخذ الذكور بذلك فيكون بشرح الأسباب ونقائضها؛ ضرورة أن الذكور مائلون بالطبع إلى التسلط والغلبة والعناد، وأماهن فليينات العرائك بالفطرة سريعات التقليد والتصديق"<sup>١٢٩</sup>.

وذهب العدل إلى أن المقدار اللازم من التاريخ لأخذ الناشئة به في المدارس الابتدائية فهو تاريخ الوطن منذ نشأته إلى الوقت الحاضر، ومجمل تاريخ بعض الأمم المتقدمة أو الحديثة، التي لها علاقات واتصالات دينية أو سياسية بالوطن، ومن ذلك

١٢٧ - حسن توفيق العدل: المرجع السابق، ص: ٨٠.

١٢٨ - نفسه، ص: ٨٣..

١٢٩ - نفسه، ص: ٨٠.

تاريخ الانبياء والأمم السالفة المذكورة في القرآن الكريم، ثم تاريخ نشأة الاسلام ونموه، ودوله التي اعتورت عليه والتي لها ارتباط بالوطن<sup>١٣٠</sup>.

ويرى العدل أنه يحسن أن يذكر المعلم للطلاب وقتا بعد آخر بعضًا من الأمثال والأقوال الحكيمة التي صدرت عن كبار الرجال الذين لهم اليد البيضاء في التاريخ ، وأن ينتخب بعضًا من الأدوار والأشعار المؤذنة بالفخار والحماسة وحب الوطن يحفظونها عن ظهر قلب، وذلك تأكيدًا على أهمية الرموز الوطنية والتاريخية، وإحياء أصيل التراث والاستفادة منه، فيدعو العدل إلى انتخاب الأيام الشهيرة في التاريخ الوطني أو في التاريخ الإسلامي ليحتفل بها في الأيام الموافقة لها من كل سنة،<sup>١٣١</sup> يقول: موضحًا الغرض من هذا كله "وكيفية الاحتفال بتلك الأيام هو ان ينتخب المعلم أدوارًا وأشعارًا إما قديمة أو حديثة يكون موضوعها الفخر بالشجاعة والأبطال وباتساع دائرة الدولة؛ مما يبعث حب الوطن في القلوب...حتى إذا حلت تلك الأيام من كل سنة لا يلقي عليهم درسًا جديدًا؛ بل يحتفل معهم ف بالدرس...ولا يخفى ان ذلك تنبيهًا إلى لأفكارهم إلى معنى الجامعة والوطن"<sup>١٣٢</sup>.

#### **ب: دراسة جغرافية الوطن**

ذهب توفيق العدل إلى ان دراسة جغرافية الوطن جزء من تأكيد الهوية الوطنية فعنده أن الغرض العام من أخذ الناشئة بالجغرافية هو تربية الترقب فيهم لأشياء الوطن الطبيعية أولاً؛ حتى تكون لهم مثالاً لجغرافية البلاد الأخرى<sup>١٣٣</sup> يقول: "وأهم محور يدور عليه تدريس الجغرافيا في المدارس الابتدائية هو الوطن لأنه محسوس ومشاهد للناشئة، ثم نجوز بهم من أفاقه إلى آفاق البلاد الأخرى شيئاً فشيئاً وأخص بها البلاد التي لها بالوطن علاقة سياسية أو دينية أو تجارية"<sup>١٣٤</sup>.

١٣٠ - حسن توفيق العدل: المرجع السابق، ص: ٨٠.

١٣١ - نفسه، ص: ٨٢.

١٣٢ - نفسه، ص: ٨٢.

١٣٣ - نفسه، ص: ٨٤.

١٣٤ - نفسه، ص: ٨٥.



والعدل لا يقف عند حد النصيحة والحكمة بل يطالب بالتدريس العملي والتطبيقي ، فيطالب بعدم الاقتصار في تعليم جغرافية الوطن على مجرد التعليم العقلي والحكاية والوصف والنظر في الخرائط بل بالخروج والمشاهدة على الطبيعة<sup>١٣٥</sup> يقول: "والحد الضابط لنا في ذلك أن نعرض الناشئة على كل ما أمكن عرضهم عليه من الأشياء الجغرافية الوطنية؛ أما ما لا يمكن مشاهدتهم إياه فينبغي اجتهاد النفس في تشخيصه لهم، وإظهاره من عالم الغيب إلى عالم المشاهدة والعيان"<sup>١٣٦</sup>.

ولا يكتفي مفكرنا بهذا بل يبحث معلم الجغرافيا أن يوسع من نطاق علمه بطريق الملاحظة للأشياء الطبيعية الوطنية، لأن ذلك أولى له من الانكباب على الكتب يجمع من هنا وهناك، فيصير بحسب تعبيره رقيق غيره وأسير آرائه، فالفرق عظيم بين أن يشخص ما شاهده، أو أن يصف ما سمعه (فما راء كمن سمعا)<sup>١٣٧</sup> يقول: "ولذا أرغب من معلمى الجغرافيا أن يكونوا على بينة من معاطف وطنهم ولست أعنى أن يجمعوا ما جمعه غيرهم، بل أن يقدفوا بأنفسهم في بلادهم يقطعون مراحلهم، ويشاهدون مسالكهم، ويتعلمون منعطفاته، ولست أريد أن يرحلوا على جياذ الخيل أو يتبطنوا العربات فقط، بل ها هي أرجلهم فليرحلوا بها في البلاد وليتسنموا بها ذروة الجبال، وليتبطنوا الأودية يصعدون النجد وينحدرون إلى الغور حتى يصير علمهم عملاً وسمعهم نظراً، وليس ذلك على من أشرب في قلبه حب الوطن والعلم بعزير"<sup>١٣٨</sup>.

وقد طالب العدل معلمى الجغرافيا بأن تكون الخرائط مرقومة باللغة الوطنية يقول "ويجب أن تكون مرقومة بالأحرف العربية، لاسيما الخرائط الوطنية؛ فإن اتخاذ ما كان منها مرقومًا بالأحرف الإفرنجية في مدارسنا الابتدائية بمعزل عن الصواب، بل هو الخطأ بعينه، فإن فيه تثبيطاً لهمم، وبعثاً للتشتت والملل، وابعاداً للقريب، وتجهيلاً للمعلوم، ولا يسير بأبنائنا إلا كما يسير السرطان إلى وراء، ولا يبلغ بهم إلا إلى خيبة الأمل"<sup>١٣٩</sup>.

١٣٥ - حسن توفيق العدل: المرجع السابق، ص: ٨٦.

١٣٦ - نفسه، ص: ٨٧.

١٣٧ - نفسه، ص: ٨٨.

١٣٨ - نفسه، ص: ٨٨.

١٣٩ - نفسه، ص: ٨٨.

### ج: اللغة الوطنية :

اللغة عند حسن العدل هي العبارة والترجمان عن الأفكار والتصورات والاحساسات النفسية<sup>١٤٠</sup>، وممارسة الإنسان لغته تزيد في أفكاره وتوسع من نطاق تصوراته وتصعد بإحساساته التي هي كامنة في نفسه، ويشترط العدل ضرورة اتقان اللغة الوطنية قبل تعلم أي لغة أجنبية،<sup>١٤١</sup> وأن تثبت الحكم الوطنية والحديث عن جغرافية الوطن في كتب المطالعة<sup>١٤٢</sup>، وحتى الدعوات في كتب المطالعة يرى العدل أن هناك نوعين من الدعاء قد وجدتهما فالأول: يدعو بجلب النفع ودفع الضرر أصالة، والثاني: يدعو بطلب التوفيق لنوال الخير والقدرة على مجابهة الشر، ويرى أن الأول مثبط ويخرج بالإنسان من التوكل الحقيقي المطلوب شرحًا إلى الوقوع في الكسل، فيرى أن يكون اغلب موضوع الدعوات هو طلب التوفيق للحصول على المنفعة العائدة على العموم؛ كإقامة دعائم الوطن وإصلاحه<sup>١٤٣</sup> ويرى العدل أنه يحسن أن يكون ضمن كتب المطالعة قطع نثرية وشعرية لبعض المتقدمين المشهورين في تاريخ أدب اللغة، وذلك لبعث إحساس الفخر في الناشئة بلغتهم وبمن قام بخدمتها من مشاهير الرجال<sup>١٤٤</sup> ويؤكد العدل على ضرورة أن تكون الحكايات توضع في كتب المطالعة عقلانية وبعيدة عن الخرافات والخزعبلات<sup>١٤٥</sup>.

ويجعل حسن توفيق العدل اللغة أحد أهم الأسس التي تتبني عليها دعائم تقدم الوطن مادياً وأدبياً وعلمياً وصناعياً، وتعهدتها من الواجب على أفراد أمة تريد ان تبلغ لها شلوا من الحضارة والمدنية، وانه بقدر خدمتها خدمة عملية يكون التقدم إن زيادة وإن نقصاً، ولا يكون ذلك إلا بأخذ الأفراد بها وذلك بغرض تربية ذائقتهم اللغوية، وبعث القدرة فيهم على استعمال لغتهم في التكلم والتحرير واستخدامها في مقتضيات وظائفهم المستقبلية،

١٤٠ - حسن توفيق العدل: المرجع السابق، ص: ٤٦.

١٤١ - نفسه، ص: ٤٧.

١٤٢ - نفسه، ص: ٦٠.

١٤٣ - نفسه، ص: ٦٠-٦١.

١٤٤ - نفسه، ص: ٦٣.

١٤٥ - نفسه، ص: ٦٤.

بحيث لا يحتاج إلى مشاركة الغير في التعبير عن أفكاره أو تصحيح ما حرره<sup>١٤٦</sup>:  
يقول: "ولعمري إن عجز العالم عن إظهار علمه بلغته الوطنية لكاف في أن يسير بالأمة  
القهقري كما لا يعزب علم ذلك المتبصرين"<sup>١٤٧</sup>.

وكما يؤكد العدل على أهمية اللغة الوطنية كجزء من تأكيد الهوية الوطنية، فنجده  
كذلك يُوجه سهام النقد إلى البعد عن روح العصر والإصرار على التقليد، والتوقف عن  
تجديد اللغة، بوضع الألفاظ مقابل المعاني، كما فعل العرب في أيامهم يقول: " فكيف لنا  
الآن أن نقلدهم وتتبعهم اتباع الخيال لشخصه في أمورهم وأحوالهم التي اختص بها  
عصرهم، ولم نلتفت إلى ما يلائم عصرنا هذا، فهل يحسن بشاعرنا الآن أن يقتفى أثر  
أمرئ القيس في وصف الأفراس وهو لا يعلم أسماء العدو ولا كفياته بل ربما لم تساعده  
الأقدار يوماً ما على تسنم سهوتها فيعرف كيف انعطافها وعدوها، وبذلك نراه يصف ما  
لا يجده ويذكر ما لا يشعر به ... أم كيف يتسنى له أن يأمر حادى العيس بالتعريح  
على حى المحبوبة، أو على أطلالها ليشكو له وجده وغرامه وليس لنا الآن عيس ولا  
حاد ولاحي ولا طلل، بل نحن في عصر عيسه هو القطار الذي يجوب ببخاره الأقطار،  
وحاديه هو سائقه، وحيه المدن القائمة الدعائم، وطلله المنازل المشيدة والأبنية الشاهقة،  
على أن لنا الآن مندوحة عن ذلك بمصلحة البريد فهي كافلة تبليغ شكوى ما نجده من  
الوجد والغرام بثمن بخس، فأولى لشاعرنا ومنشئنا الآن أن يقدحاً زناد الفكر فى أحوالنا  
الحاضرة ويظهرها من تخيلهما ما أظهره تخيل العرب بالنسبة إلى ما عاصره من الأحوال،  
ولو تأملت إلى ذلك كله لوجدته سببا عظيماً حال بين العلماء والعامّة وأوقع التنافر فيما  
بينهم، حيث ترى العامي وقد طرق سمعه كلمات العيس والحي والطلل مثلاً لا يزداد إلا  
نفوراً مع أن حكمة الحكيم جل شأنه في ايداعنا النطق والقدرة على التكلم إنما هي  
التعارف والتآلف وإقامة آداب المعاملة والمعاشرة، والله يهدى من يشاء الى صراط  
مستقيم"<sup>١٤٨</sup>.

١٤٦ - حسن توفيق العدل: المرجع السابق ص: ٦٧.

١٤٧ - نفسه، ص: ٦٧.

١٤٨ - نفسه، ص: ٧٧.

## رابعاً: قواعد بناء الهوية:

لقد ركز في يقين العدل أن إعادة بناء الهوية وقيام حداثتها الخاصة لا يتحقق إلا من خلال مشروع تربوي طويل الأمد يخرج فضلاء وليس فقط متعلمين أو مستوظفين للجهاز الإداري، مواطنين لا رعايا؛ ولذلك نجده يقرب بناء الوطن بحسن تربية الشباب، ويرى أن هذه هي الرابطة المنطقية<sup>١٤٩</sup>. وإذا كان إيقاظ الهوية والإيمان بقدرة الذات على البقاء والتفاعل مع الآخر والاستفادة من علومه العصرية، شرطاً من شروط نهضتها، وإذا كان بث الهوية الوطنية هو الركن الركين لبنائها، فإن هناك قواعد أساسية لا يكتمل هذا البناء بدون التأسيس عليها، وإلا ستظل الذات أسيرة الحداثة البرانية الشكلية، وتكون عرضة للفناء في غيرها، وأهم هذه القواعد هي:

### ١ - بناء العقل الناقد، وإزاحة عقلية الخرافة:

بناء العقل الناقد عند حسن توفيق العدل هو القاعدة الأولى لبناء الهوية وإنتاج حداثة حقيقية لا حداثة شكلية، ونجد أنه أسس لهذه القاعدة عبر نصوصه المتنوعة، فقد آمن أن العقل هو العامل المشترك في كل حداثة عبر التاريخ الإنساني، وأن غياب العقل وحضور الخرافة هو العامل المشترك في كل تأخر وانحطاط، فبعد أن سمع عن أساطير نهر الراين يقول: "وأخذني العجب من هذه الخزعبلات، وأمثالها التي ملأت العالم شرقاً وغرباً، وقامت دليلاً على شدة العقل الإنساني إلى التصديق، وحبه المفرط لما كان غريباً أو عجيباً من الأمور، ولخوارق العادات، وليس هذا بأعظم من عجبي من سرعة انتباه أهل أوروبا في هذا العصر الحالي، وتيقظهم وميلهم إلى حقائق الأشياء، وعدم اعتبارهم لمثل هذه الخرافات، وإن كان فيهم أولو جهالة وطباع بسيطة كباقي الأمم"<sup>١٥٠</sup>.

فعلى هذه القاعدة (العقل) أقام الأوروبيون حضارتهم الحديثه، فلم ينتظروا عصى (موسى) أو طلسم (هاروت) و(ماروت)، وإنما استعانوا بالعقل الذي صرفوه فيما خُلق لأجله، وجعلوا له السلطان الأكبر عليهم، واندانوا له وانقادوا؛ فشملمهم بعدله<sup>١٥١</sup>.

١٤٩ - حسن توفيق العدل: رحلة حسن افندي توفيق العدل، ص: ١١٣.

١٥٠ - حسن توفيق العدل: رسائل البشرى في الساحة بالمانيا وسويسرا، ص: ١٣-١٤.

١٥١ - حسن توفيق العدل: رحلة حسن افندي توفيق العدل، ص: ١٤١-١٤٢.

وبعد بحثه عن العقل في التراث وجد أن العقل هو الذي أقام عليه المسلمون والعرب حضارتهم<sup>١٥٢</sup>، وليس خاتم سليمان، ولا (الجن، والعماريت)<sup>١٥٣</sup>، ولكن بمقارنة الحال وجد العدل أن شيوع عقلية الخرافة في المجتمع المصري والعربي واحدة من أهم معوقات نهضته، والتي يتغذى عليها خاصة في طرق تربية الناشئة<sup>١٥٤</sup> وقد عانى مفكرنا نفسه منها يقول: "حذار من تخويف الناشئة من الجن بذكر حكاياتهم، التي تخلع قلوبهم، وتجعلهم يعمهون في ظلمات الخوف والفرع والخيال والوهم، ولست أذكركم سادتي بما قاسيناه أيام الطفولة، من خفقان القلب وارتفاع شعر الرأس وتشنج الأعصاب؛ إذا دخلنا قاعة مظلمة، أو سرنا في طريق ليلا، وما ذاك إلا نتيجة تخويفنا بحكايات الجن والعماريت"<sup>١٥٥</sup>.

هذا وفي حين وجد أن الأوروبيون، يؤلفون في العلوم الفلسفية العربية<sup>١٥٦</sup>، وعاكفون على طبع كتب التراث العقلي والعلمي للعرب والمسلمين، وتدريسها وترجمتها، والتي قد شغفوا بها وبمنتجتي نصوصها، الذين اشتهروا لديهم بجميع المدارس العليا كاشتهار علماء النحو بين طلبة الجامع الأزهر، وجد المجتمع المصري مشغول بالجانب السحري اللاعقلي في التراث<sup>١٥٧</sup>، يقول: "ولست ترى عالماً جغرافياً أو تاريخياً بقارة أوروبا إلا ولديه علم بتلك الكتب إن لم نقل بما حوته، ولم أقصد سادتي بحديثي هذا تشدقاً، كلا بل بعثاً من نشاطكم، وتبنيهاً من التفاتكم نحو ما قامت به أسلافكم، وتعبوا لأجله، ... ألم نكن نحن الجديريين بأن نقدر لأسلافنا قدر أعمالهم فنبحث وننقب عنها وندرسها، فنعلم ما هدونا إليه، ونسج على منوالهم ونتم مشروعاتهم! تلك أعمالهم وتآليفهم بين ظهرانينا في كل فن وعلم، ولكن وا أسفاه! نراها ميتة في جلودها لا تجد لها باعاً لروحها أو مطالعاً لأسطرها أو طابعاً لها! ألم يكن طبعها أولى من طبع ثلاثين جزءاً من قصة

١٥٢ - حسن توفيق العدل: سياسة الفحول في تنقيف العقول، ص: ٦-٧.

١٥٣ - نفسه، ص: ٩٠.

١٥٤ - حسن توفيق العدل: رحلة حسن افندي توفيق العدل، ص: ١١٠-١١١،

١٥٥ - حسن توفيق العدل: البيداجو، ج ٢، ص: ٤١.

١٥٦ - حسن توفيق العدل: رحلة حسن افندي توفيق العدل، ص: ٩١.

١٥٧ - حسن توفيق العدل: رسائل البشرية في الساحة بالمانيا وسويسرا، ص: ٥٥.

عنتر بن شداد، وأبي زيد الهلالي وسلامة، والوزير سالم، وخضرا الشريفة، وغير ذلك مما لا يفيد العامة إلى تأخرها في المدنية والآداب<sup>١٥٨</sup>.

وقد حاول حسن العدل أن يعيد بناء العقل الناقد ورأى أن السبيل إلى ذلك يكون من خلال التربية، ففي كتابه الرحلة البرلينية في الجزء الخاص بالتربية، وكتاب البيداغوجيا بجزئية (التربية العلمية، والتعليم والتربية العملية)، وكتاب سياسة الفحول في تثقيف جعل مدار التعليم والتربية والتثقيف على تنمية العقل الناقد، ونقض عقلية الخرافة، ففي علم الدين يقول: "وإذا قص أحوال أمة يحسن به أن يصف للناشئة بعضا من هياهم الجسمية وأشكال ملابسهم وبعض أدوات معاشهم التي كانوا يستخدمونها وينبهم إلى الفرق بين كل ذلك وبين أحوالنا في هذا العصر الحالي وذلك طلباً للاحياء قوة التفكير فيهم وتربية لوظيفة الانتقاد والتمييز بين الحسن والقبيح والمقبول وغير مقبول والمفيد وغير المفيد سواء في الاخلاق والأحوال والأعمال"<sup>١٥٩</sup>، وفي التاريخ ينبه المعلم إلى ضرورة تمرين الناشئة على الصدق في الأخبار، وينبهم إلى حقائق الأشياء، ويحيد بهم عن الخرافات والخزعبلات، والأوهام التاريخية وكل ما ينافي نوايس العقل والطبيعة<sup>١٦٠</sup> وفي الطبيعات يرى ضرورة أن نبعث من التفات الناشئة إليها وإلى ظواهرها وتأثيراتها، فننبه حواسهم ونحرك وظيفة الترقب والاستكشاف فيهم، ونتقف عقولهم بنواميسها، ونقوي من تصورهم بترقيهم الأشياء الطبيعية<sup>١٦١</sup> وهكذا في كل العلوم مثل الهندسة واللغة وعلم الدين وهو ما سنفصل فيه الحديث كما سيأتي.

## ٢ - تنقية الدين مما علق به.

يعرف العدل الدين بأنه أحكام أمر بها الباري جل شأنه لتبعث النوع الإنساني إلى الصلاح معاشاً ومعاداً، وإن شئت قلت هو عبارة عن مجموع النواميس الضابطة لنسبة الإنسان إلى الله وإلى غيره من المخلوقات<sup>١٦٢</sup> ويرى العدل أن الدين أساس من أسس الهوية وضرورة أساسية للهيئة الاجتماعية وأن الانتظام السياسي لا يتم إلا به، وأن أخذ

١٥٨ - حسن توفيق العدل: البيداغوجيا، ج٢، ص: ٥٥.

١٥٩ - نفسه، ص: ٤٣.

١٦٠ - نفسه، ص: ٨٣.

١٦١ - نفسه، ص: ٨٩-٩٠.

١٦٢ - نفسه، ص: ٣٤-٣٥.

الأمة بالسياسة أخذًا غير مشوب بالدين عديم الدوام؛ لأنه أثر يزول لأول عارض بمجرد زوال المؤثر، وهو السلطان الظاهري، ففرق بين من لا يسرق خوفاً من أن يحل به عقاب الضابطة، ومن لا يسرق خشية من الله وخوفاً من السخط عليه<sup>١٦٣</sup>.

وبالنظر إلى العالم الغربي وجد العدل أن آراءهم تشعبت فمنهم من رأى ضرورة تدريس الأوامر الدينية وأخذ الناشئة بآدابها في المدارس كما في ألمانيا وإنجلترا وروسيا، ومنهم من ذهب إلى أخذ الناشئة بالآداب العامة ويسمون ذلك بالدرس الأدبي كما في فرنسا، أما العدل فذهب إلى ضرورة تدريس الأوامر الدينية وأخذ الناشئة بآدابها، ولكنه اشترط في ذلك أن يكون خالصاً مما لحق بالدين وليس منه، والذي من شأنه أن يطفئ من توقد الفكر وذكاء القرية<sup>١٦٤</sup>.

وإذا كان سلطان الدين إنما هو على الباطن، فيرى العدل أن تسطيح الدين وتحويله لمظاهر طقوسية، هو تغيير لحقيقته، كما يفعل الشارحون و أصحاب الحواشي والتقارير من جعلهم كل ذلك موضوع لتطبيق قواعد العلوم الآلية كالنحو والبيان والمعاني والبديع، فيستبدل اللعب والتجادل بالألفاظ والجمل، بمعانيها الأدبية وحكمها العقلية ومعالجة شئون الواقع وقضاياها، فنضع الأمور في غير مواضعها وهو الظلم بعينه<sup>١٦٥</sup> يقول: فإن الاكتفاء بتعليم الأمور الدينية بدون تعهد ما وضعت لأجله من الآداب لا يفيد المقصود بل يصير ذلك عادة محضة تصدر عن المرء بدون روية، ومن ذلك تعلم حكمة مشروعية النية في الأعمال الدينية، والأمة متى قلد صغارها كبارها في أعمال الدين بدون أن يختلج في قلوبهم الإحساس بآدابها جدية بالنقهر، وهي وإن أقامها السلطان الظاهري والقوة الفعالة والسياسة فلا تبلغ شأوها؛ بما أن القوة الظاهرية وحدها من شأنها أن تلقي في قلوب الأفراد رعباً وجبناً وتملقاً، وغير ذلك مما يحط بالهيئة الاجتماعية<sup>١٦٦</sup>.

فقد أراد العدل أن يربط الدين بالشروط الاجتماعية للواقع المأدوم، ولذلك ذهب إلى أنه وإذا كان المخول بالتربية الدينية هي الأسرة والمدرسة، فإن المدرسة أهم المقامين في أخذ

١٦٣ - حسن توفيق العدل: المرجع السابق: ٣٥..

١٦٤ - نفسه، ص: ٣٥.

١٦٥ - نفسه، ص: ٣٥-٣٧.

١٦٦ - نفسه، ص: ٣٧.

الناشئة بالآداب الدينية والآداب العامة ليخرجوا مع علومهم مهذبين مؤدبين، ويمكنهم فيما بعد أن يؤسسوا لهم عائلات تقوم على دعائم الفضائل والآداب ويكونوا مثلاً لأبنائهم ونموذجاً لهم<sup>١٦٧</sup>.

ولكن المشكلة الحقيقية التي تنبه لها حسن العدل ليست فقط في وجود المدارس بل طرق تدريس العلم الديني في عصره، ولذلك أجتهد في كتاب البيداغوجيا العلمية في الجزء الثاني أن يقف على طرق تعليم الناشئة للعلوم الدينية، وخاصة علم العقيدة بفروعه الثلاثة (الإلهيات- النبوات- السمعيات) وكما انتقد الغربيين الذين أقاموا معه المناظرات الدينية؛ لعدم إدراك أغلبهم لاصول الإسلام<sup>١٦٨</sup>، فقد انتقد العدل طرق تعليم وتدريس العقيدة في عصره، وذهب إلى أنها ابتعدت عن مسلك السلف الصالح، حيث كانوا ينيرون قلوب العامة بنور صفاته سبحانه، ويرشدون إلى المقصود الأول للمشرع ألا وهو تربية القلب بالإحساسات الدينية، وتقوية شعور النفس بتلك النسب التي تربط بين الإنسان وربّه، حتى تتوطد محبة المرء للخالق جل شأنه، فينتمر بأمره وينتهي بنهيّه. واتخذ تعليم العقيدة طريقتين حائدتين عن المقصود من الدين:

الطريق الأولى: هي التي سلكها علماء التوحيد بعد السلف الصالح، فإنهم اتخذوا التوحيد علماً جدلياً، وجعلوه في عداد الصناعة الكلامية، وضربوا صفحاً عن المقصود للمشرع الأول عليه الصلاة والسلام من تنوير القلوب وتثقيف العقول، وهم وإن قصدوا بذلك إقامة البراهين وإفحام الخصوم، فقد ساروا شططاً واعتبروه مقصوداً بالذات ونسوا ما وُضع لأجله.

الطريق الثانية: هي التي سلكها المعلمون والآباء فأما المعلمون فإنهم ساروا على سنن سلفهم من جعلهم علم التوحيد موضوعاً للجدل والبحث، فاعتمدوا على توجيه الناشيء لحفظ متن مطول في التوحيد عن ظهر قلب يكرره أياً ما وأشهرها بل أعواماً؛ ثم إذا صادفته العناية، فدرس شروحه وحواشيه وتقريراته وقع في التشتت والحيرة لصعوبة الاصطلاحات والأدلة والبراهين التي أسسها الأقدمون فتنشط همته وتضعف عزيمته، ولا يدرى أيعد نفسه من العامة أم من العلماء، وأما إذا لم تصادفه العناية بدرس شروحه فقد

١٦٧ - حسن توفيق العدل: المرجع السابق، ص: ٣٨.

١٦٨ - حسن توفيق العدل: رسائل البشرى في السياحة بألمانيا وسويسرا، ص: ٤٧.



كفاه الزمن الذي قضاه في الحفظ والتكرار بدون ثمرة، وصار مثله كمثل ساقية تدور بدون ماء فهل يكفي نعيها. وأما الآباء في العائلات فطريقة تربيتهم لابنائهم بالآداب الدينية إنما هي إلقاء الفزع والخوف من جانب الألوهية في أغلب الأحوال؛ وبذلك تنشأ الأبناء مخلوعي القلوب جبناء جاهلين، لا إرادة ولا آمال لهم، يظنون الحرام حلالاً، والمندوب مكروهاً، والحسن قبيحاً، والشر حسناً، ويتطرق ذلك إلى أحوالهم المعاشية، فيلحقهم الكسل ويقعدوا الدهر مع القاعدين، نعم إن تلك الطريقة هي إحدى الطريقتين في الأخذ بالعقائد والآداب الدينية ولكن أنت تعلم أن ثانية الطريقتين أولى وأحرى ألا وهي إلقاء محبة الله في قلوبهم وإحياء نفوسهم بصفاته سبحانه حتى تصدر عنهم الأعمال حبا لاكرها وتبرعا لا جبراً، ويتطرق ذلك إلى حبه الفاضل لذاتها وكرهتهم الرذائل لذاتها أيضا لا لما يترتب عليها من الثواب والعقاب<sup>١٦٩</sup>.

إن الطريق التي يحسن أن نؤمها في تعليم العقائد الدينية فيما يرى العدل هي إلقاء محبة الله في قلوبهم وإحياء نفوسهم بصفاته الكمالية وتقوية إحساساتهم النفسية بمدلول صفاته سبحانه، ولا يقتصر منها على ما ذكره علماء التوحيد من الصفات السلبية والمعنوية وصفات المعاني، فإن ذلك موضوع لإفحام الخصوم، ويكون ذلك باحدى طريقتين:

(الطريقة الأولى) تعليم الناشئة القصص التي قصها الباري جل شأنه في القرآن الشريف فإنها كما تربي العقول لقيامها مقام الاختبار والتجربة تقوى الشعور بصفات الله الكمالية من القدرة والإرادة وغيرهما وتكفل بتربية الاحساسات الدينية وحيث إن سردها في القرآن الشريف لم يكن عبنا بل تعليمها للخلق وهداية لهم فلا جرم أن نستعملها فيما سيقنت لاجل.

(الطريقة الثانية) بعث التفات الناشئة إلى المحسوسات الظاهرية كالسما والنجوم والارض والبحار والأنهار والأشجار والأزهار والحيوانات والطيور والاسماك وغيرها وتنبههم إلى خواصها ومنافعها وآثارها في هذا العالم فإن ذلك لاعظم دليل على صفاته الكمالية سبحانه ولذا ينبغي أن لا نسير سير علماء التوحيد عند تعليم الناشئة في إقامة الأدلة والبراهين المنطقية فإنها داعية إلى تشتت الأفكار يقول: "على أنى أناشدهم الله

١٦٩ - حسن توفيق العدل: البيداجوجيا، ج٢، ص: ٣٨-٤٠.

الذي لا إله إلا هو ألا يأتوني بأية قرآنية، أو حديث شريف يؤذنان بوجود الاستدلال ببراهينهم التي أسسوها ولا أخالهم يأتوني بهما أو بأحدهما، فلو تصحفنا القرآن الشريف والأحاديث النبوية وآثار السلف الصالح لما وجدنا سوى البرهان بعالم العيان والمشاهدة، فقال عز شأنه ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤).

وأما أخذ الناشئة بتعليم النبوات فيكون ضمن سرد قصص الانبياء وتاريخهم وأعنى بذلك ذكر أعمالهم وحسن أخلاقهم وقوة جاشهم وسعيهم في هداية الخلق إلى الخير؛ فإن أدل دليل على صفات الانبياء الكمالية إنما هو أعمالهم التاريخية وآدابهم وكفى بهما دليلاً، وأما السمعيات فينبغي تعليم الناشئة ما أتى به الدين الحنيف منها بدون شابة الأوهام والخرافات التي وضعها البعض جهلاً وأعني بذلك أن نبلغ الناشئة بالبعث والنشور والثواب والعقاب بحيث لا نشد الوطأة عليهم بشرح ذلك فتخدم إحساساتهم ويظهر خوفهم ويصير جبناً ويدعوهم ذلك إلى الكسل الذي ربما ظنه البعض توكلاً، وهو عنه بمكان بعيد، ومن السمعيات اعتقاد الكتب المقدسة والملائكة والجن ويكون تعليم ذلك للناشئة ضمن التواريخ المقدسة مع البعد عن الدخول في الجانب اللاعقلي من الخرافات والخرعيلات.

### في حقوق المرأة:

العلاقة بين الرجل والمرأة عند حسن العدل من أهم قواعد بناء الهوية وقيام نهضة الذات وتقدمها، وإذكاء الصراع بين الرجل والمرأة يُهدد هذه الهوية، وقد أخذت هذه القضية مساحة مهمة في الفكر العربي في عصر النهضة، أدلت فيها كل التيارات بدلوها.

وقبل عقد من الزمان تقريباً على صدور كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين ناقش حسن العدل في كتاباته التربوية، قضايا المرأة وخاصة قضية (المساواة – والتعليم) فذهب إلى حق المرأة في المساواة بالرجل يقول: "ولتعلم أن الزوج والزوجة سيان في الحقوق، ومتساويان في المعاملة؛ فكما أنه سيد العائلة لكونه أقوى حماساً وأشد بأساً ووسع

تصرفاً، كذلك هي رئيسة أموره لتدبيرها المنزل ونظرها في مصالحه وجلبها لراحته؛ فاسترقاقه إياها أو صرفها في خدمته الخارجة عن حقوقه ضد للعدل مناف للآداب، حطة في الإنسانية، خدش لناموس الحياء<sup>١٧٠</sup>.

إن حديث النهضة وبناء الهوية هو حديث خرافة بالنسبة لحسن العدل بدون تربية المرأة وتهذيبها، يقول: "كيف يرجى من الزوجة أن تكون مقتصدة إذا لم تعرف معنى الاقتصاد، ولم يطرق سمعها لفظه، أو تكون مربية للجسم والعقل إذا كانت جاهلة بالنسبة بينهما وبالمقصود من التربية؛ فإذن تعلم أن تربية الأبناء سواء الذكور منهم والإناث وتعليمهم العلوم والآداب من أول واجب على كل أمة تزيد صلاحها وتقدمها، وانخلاصها عن جلباب البساطة، وانقاذ أفرادها من مهالك الجهل والتوحش، والانحياز بهم الى جانب التمدن والحضارة؛ حتى تكمل النسبة بين الرجل والمرأة ويقوى تعارفهما وتتأكد ألفتها وثقتها ويكون مجموعهما، تمثالاً للخير وصورة للآداب التي يبعثانها في أبنائهم وتكون العائلة مثالا للمجتمعات الخارجية ونموذجاً للوطن ومنوالاً للأمة<sup>١٧١</sup>.

وفي رحلته البرلينية وبعد أن شاهد ما وصلت إليه أوروبا والعالم الغربي من تعليم النساء، وكيف أنه أساس للحدثة الغربية، طالب العدل على استحياء بإلزامية التعليم للأولاد والبنات، وسوف يدلل أثناء حديثه على أن ذلك كان موجوداً في التراث يقول: "وأريد أن أتطفل بذكر أمنية لي، هي في الحقيقة أعظم أمانى، ولكن قبل الشروع فيها استمنح الأمان؛ فإني سأعرض ذلك ولساني يتلثم، ويراعي يرتعد؛ خوفاً مما عسى أن يضرب عنه صفحاً، أو يؤخذ مأخذ المضحكات، أو يكون دليلاً على الطيش في التمني، أياكون ذلك حقاً؟ كلا ثم كلا، وحق الوطنية فإني سأتلو ذلك بلسان ذرب، وأرقمه ببراع لا يريعه المهندس. ألا وهو فرض وحثم تعلم جميع أبناء الوطن، ولا أخشى أن أقول، والبنات أيضاً، كيف أخشى سادتي، وأنتم تعلمون أن تلك البنات سيكن أمهات الأولاد يقمن بتأديبهم، ألم تعلموا أيها الأخدان إنه حينما كانت الإفرنج يمنعون المعارف عن النساء كانت العرب يفتخرون بالعارفات منهن؟ أنرضي بأن نكون عاراً لأبائنا

١٧٠ - حسن توفيق العدل: البيداجوجيا، ج١، ص: ٥١.

١٧١ - نفسه، ص: ٥٢.

الأقدمين، وخلفاً غير صالح لهم؟! (تكتفي بقولنا كنا وكانو!! وهل ينفع ما كان خيراً لكان؟، كلا! فبالعظم الرميم لا يكون الفخار<sup>١٧٢</sup> .

فالنساء عنده خلقهن الله سبحانه ليكن حلفاء لرجالهن، وليس للفراش فقط، وقد أكد العدل أن تعليم النساء العلوم العقلية والعملية أمر ممكن؛ إذا ما أعمت الطرق اللازمة للحصول على تلك الغاية. وقد ضرب العدل كثيراً من الأمثلة التي شاهدها وقرأ عنها من البلاد التي استطاعت أن تحقق هذه الغاية، فضرب مثلاً بمملكة (البروسيا) حينها، والنرويج) ، و(هولاندا) و (بلجيكا)، والدوقيات الألمانية، وكثيراً من ممالك (أمريكا)؛ يقول: "فكل هذه الممالك حدثت؛ فشرعت في الحصول على ذلك وتممته فأهلها<sup>١٧٣</sup> الآن ما بين رجال ونساء علماء عارفون، لا أقول بالقراءة والكتابة فقط بل و ببعض العلوم<sup>١٧٤</sup>

وفي كتابه (الحركات الرياضية البدنية)، وكتابة (مرشد العائلات إلى تربية البنين والبنات)، والذي يعد أول من قدم كتاباً في هذا الباب في الفكر العربي والإسلامي الحديث، جمع فيه بين الحداثة والتراث<sup>١٧٥</sup>، قدم حسن توفيق العدل منهجاً للتربية الجسمية، ساوى فيه بين الجنسين، يقول: "فالأمة التي تعهد تربية أبنائها إلى يد الصدفة والجهل تنشا أبنائها حليفي الأمراض خالمي الذكر ضعيفي الجأش، بينما الأمم التي بلغت شأوها من المدنية وعهدت تربيتهم إلى ما أنتجه العقل وأثمره العلم ينشؤون صحيحي الأجسام راجحي الأحلام:"<sup>١٧٦</sup>

١٧٢ - حسن توفيق العدل: رحلة حسن افندي توفيق العدل، ص: ١٦٩.

١٧٣ - نفسه، ص: ١٧٠.

١٧٤ - نفسه، ص: ١٧١.

١٧٥ - حسن توفيق العدل: مرشد العائلات إلى تربية البنين والبنات، المطبعة الأميرية الكبرى، بولاق(القاهرة)، ط١، ١٣١٥هـ، ص: ٩، و٨٦.

١٧٦ - نفسه، ص: ٢.

**الخاتمة:**

من خلال هذه الدراسة توصل الباحث إلى مجموعة من النتائج وهي:

- ١- استطاع حسن توفيق العدل أن يقدم رؤية وتجربة تنويرية لإمكانية تفاعل الذات مع الحادثة الغربية، دون أن تفقد الهوية خصوصيتها، فتفاعلها مع الأغيار يجعلها قيمة فاعلة قادرة على التطور، واكتساب خصائص جديدة، فالهوية ليست شيئاً جامداً يمكن أن يحنط ويحفظ في التوابيت، وإنما هي منغمسة في التاريخ والمجتمع، تؤثر وتتأثر.
- ٢- استطاع حسن العدل أن يتجاوز فكرة الأزمة وحاول أن يعبر فوق الجانب الإيديولوجي للمشروع الحداثي الغربي، وجعله دافعاً ومحفزاً له للاستفادة والوقوف على جانبه المعرفي والعلمي.
- ٣- استفاد العدل من معاشته للحادثة الغربية والوقوف على أسسها ومقوماتها، في كشف زيف الحادثة البرانية التي أخذت القشور دون اللباب، وتغلغلت داخل المجتمعات الشرقية، وحولتها لمجرد سوق لاستهلاك بضائع الحادثة الغربية.
- ٤- كان العدل واضحاً في تحديد دوائر الانتماء التي تحدد العلاقة مع بقية الدوائر التي هي (النحن) في دائرتها المتسعة، فنحن المصريين، ثم نحن المسلمين ثم نحن الناس، وقد جعل من دائرة الوطنية المصرية الدائرة المركزية التي على أساسها تتحدد العلاقة مع باقي الدوائر، وفقاً للمنفعة الوطنية العامة، ورأى أن تقوية دائرة الوطنية وبثها في الأبناء يمكن أن يتحقق من خلال دراسة تاريخ الوطن، وجغرافيته، ولغته الوطنية.
- ٥- أستطاع البحث أن يقف على مجموعة من القواعد الأساسية عند حسن العدل والتي رأى أنه لا يمكن أن يتم بناء مشروع حداثي وطني حقيق بدون التأسيس عليها، وإلا تصبح الهوية أسيرة الحادثة البرانية الشكلية، أو تكون عرضة للفناء في غيرها، أو تجمد وتركد، وتمثلت هذه القواعد في: بناء العقل الناقد وإزاحة عقلية الخرافة، وتنقية أصول الدين من كل ما يعيق فاعليته في الواقع ودوره في بناء الإنسان من خلال إلقاء محبة الله في القلوب، وإحياء النفوس بصفاته، فتصدر الأعمال حبا لاكرها وتبرعا لا جبراً، فتصدر الفضائل لذاتها، وتكره الرذائل لذاتها أيضا لا لما يترتب عليها من الثواب

والعقاب، وتمكين المرأة من حقوقها لتستطيع أن تؤدي دورها في بناء الهوية على الحقيقة وليس على المجاز.

إن ما طرحه حسن توفيق العدل من فكر جدير بأن نقف عليه وندرسه، فمازلنا بعد نعيش أزمة الهوية والانتماء التي تتفاقم مع التطور الرهيب في الرقمنة والذكاء الاصطناعي، ومازلنا نعيش حداثة برانية، ومازال الجانب التراثي اللاعقلي هو المسيطر على بيئة مجتماعتنا، إن لسان حالي ما ذكره محمود أمين العالم عام ١٩٩٨، في كتابه (الفكر المصري بين الخصوصية والكونية) فبعد أن تناول بالدرس والتحليل مفهوم الهوية أكد أن الأسئلة التي فجرها مفكرو عصر النهضة منذ أواخر القرن التاسع عشر هي الأسئلة التي لا تزال مثارة بيننا حتى اليوم. وأنا مازلنا نتساءل عن هويتنا، نبحت عنها ونحاولها، نظريا وفكريا وفي ممارستنا الأدبية والفنية والإبداعية، وأنه برغم ما حدث من تغير، وتحقق من تنوير وتحديث خاصة في مجال الأدب والفنون، فقد أوضح أنه كان ولا يزال نخبوا علويا برانيا، ولم يمس جذور الأبنية العميقة الأساسية لمجتمعاتنا. ومن ثم فإن سؤال الهوية في حياتنا المعاصرة هو سؤال مشروع تماما، وسوف يظل مشروعًا ومثارًا؛ حتى يتحقق ما تمناه أمثال حسن توفيق العدل وبذلوا حياتهم من أجله، وآمنوا بأبناء هذا الوطن: "هذا، وأرجو الله سبحانه أن يهديني ويهدي الشبان المصريين إلى طريق التعقل، ومعرفة حقائق الأشياء، ويطعمهم لذة الإنسانية، وواجباتها؛ حتى تصدر عنهم الأعمال التي تنفع وطنهم، وتجعلهم في عداد المعدودين في العالم، الذين لهم اليد البيضاء بالمأثر العلمية والعملية في هذا السواد الأعظم؛ فما ذاك عليهم بعزير" ١٧٧.

## قائمة المصادر والمراجع

## أولاً: باللغة العربية:

١. أ.ب.كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ترجمة محمد مسعود، تقديم أحمد زكريا الشلق، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١.
٢. إبراهيم اليازجي: اللغة والعصر، مجلة البيان، ع٤، يونيو ١٨٩٧،
٣. أحمد برقأوي: محاولة ف يقرأء عصر النهضة (الإصلاح الديني) - النزعة القومية) الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط٢ و ١٩٩٩.
٤. أحمد عبد الرحيم مصطفى: مصر والمسألة المصرية ١٨٧٦-١٨٨٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١.
٥. ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨٦.
٦. أمنة حجازي: الوطنية المصرية في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠.
٧. أنور الجندي: أعلام لم ينصفهم جيلهم، مطابع الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.
٨. بطرس البستاني: محيط المحيط، د. ن، ج١، ١٨٦٧ م .
٩. بيتر جران: الجذور الإسلامية للراسمالية مصر ١٧٦٠-١٨٤٠، ترجمة محروس سليمان، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٢.
١٠. تيموثي ميتشل: إستعمار مصر، ترجمة بشير السباعي وأحمد حسان، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط٢، ٢٠١٣.
١١. حسن توفيق العدل: أرجوزة في أداب الدعاء، تحقيق صالح محمد عبد الفتاح، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، القاهرة، س ٤٩، عدد ٥٦٤، ٢٠١٢.
١٢. حسن توفيق العدل: رحلة حسن افندي العدل ١٨٨٧-١٨٩٢، دراسة محمد صابر عرب، إعداد عبد المنعم محمد سعيد، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، القاهرة، ٢٠٠٨.
١٣. حسن توفيق العدل: سياسة الفحول في تثقيف العقول، مطبعة أبي الهول، القاهرة، ط١، ١٩١٠.

١٤. حسن توفيق العدل: كتاب رسائل البشرى في السياحة بألمانيا وسويسرا، المطبعة الأميرية الكبرى، القاهرة، ط١، ١٨٩١.
١٥. حسن توفيق العدل: مرشد العائلات إلى تربية البنين والبنات، المطبعة الأميرية الكبرى، بولاق (القاهرة)، ط١، ١٣١٥هـ.
١٦. حسن توفيق العدل: البيداجوجيا في التعليم والتربية العمليين، ج٢، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، ١٨٩٢م.
١٧. حسين المرصفي: رسالة الكلم الثمان، تقديم وتحقيق أحمد زكريا الشلق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.
١٨. خالد فهمي: الجسد والحداثة (الطب والقانون في مصر الحديثة)، ترجمة شريف يونس، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٢، ٢٠١٦.
١٩. خير الدين الزركلي: الأعلام، ج٢، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، مايو ٢٠٠٢.
٢٠. ذكي محمد مجاهد: الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشر الهجرية، ج٤، مطعة الفجالة الجديدة، القاهرة، ١٩٦٣.
٢١. رفاعه الطهطاوي، الأعمال الكاملة ج ٣، دراسة وتحقيق محمد عمارة، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠١٠.
٢٢. رفاعه الطهطاوي: رفاعه الطهطاوي: الأعمال الكاملة، ج٢، تحقيق وتقديم محمد عمارة، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ١٩٧٣-١٩٨١م.
٢٣. روبرت هنتر: مصر الخديوية ونشأة البيروقراطية الحديثة، ترجمة بدر الرفاعي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٥.
٢٤. ز. ا. ليفين: الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في مصر والشام، ترجمة بشير السباعي، دار شرقيات للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٧.
٢٥. زكي صالح، محمود مرسي: البعثات العلمية في القرن التاسع عشر، الكتاب الثاني، مطبعة وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ١٩٦٣ >
٢٦. زينب فواز: الدر المنثور في ربات الخدور، المطبعة الأميرية، بولاق، القاهرة، ط١، ١٣١٢هـ.
٢٧. ساطع الحصري: عصر القوميات، مجلة العربي، الكويت، ع٨، يوليو ١٩٨٥م.
٢٨. سمير عمر إبراهيم: الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢.



٢٩. السيد أحمد علي عامر: الشيخ حسن توفيق العدل وفكره التربوي وتطبيقاته المعاصرة، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع ، ودار الجديد للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢١.
٣٠. شريف يونس: سؤال الهوية وسلطة المتكف في عصر ما بعد الحدثة، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ط١، ١٩٩٩.
٣١. طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩٣٨.
٣٢. عبد الله فكري: رسالة في مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد في النصوص: الشرعية، مجلة روضة المدارس، نمرة (٥) ربيع أول ١٢٩٣هـ.
٣٣. علي مبارك: نخبة الفكر في تدبير نيل مصر، مطبعة وادي النيل العربية والإفريقية، القاهرة، ط١، ١٨٧٩.
٣٤. فاروق أبو زيد: أزمة الفكر القومي في الصحافة المصرية، تقديم خليل صابات، ومختار التهامي، دار الفكر والفن، القاهرة، ١٩٧٦م.
٣٥. فريدة بستاني: الموضحة ومذهب التفرنج، مجلة الهلال، القاهرة، ج١٢، س٩، مارس ١٩٠١م، ذو القعدة ١٣١٨.
٣٦. قاسم أمين: أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ، طبع على نفقة على أفندي الحطاب، مطبعة جرجي غرزوري، الإسكندرية، ١٩١٣م.
٣٧. لورد كرومر: الثورة العربية، ترجمة عبد العزيز عرابي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.
٣٨. لويس عوض: تاريخ الفكر المصري الحديث، ج٢، سلسلة كتاب الهلال ، دار الهلال، ط٣، أبريل ١٩٦٩.
٣٩. لويس عوض: تاريخ الفكر المصري الحديث، ج١، دار الهلال، القاهرة، ط٣، ١٩٦٩.
٤٠. محمد صابر عرب: ما خفي من أدب الرحلات سياحة في حياة حسن أفندي العدل، مجلة الهلال، القاهرة، ع٦، يونيه، ٢٠٠٥.
٤١. محمد عبد الجواد: تقويم دار العلوم، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥٢.
٤٢. محمد عبد الجواد: آثار المرحوم حسن توفيق العدل، صحيفة دار علوم ، ع٤، س١٣، القاهرة، ديسمبر ١٩٤٧.
٤٣. محمد كمال العدل مقدمة رسالة المقامة العذلية والمقالة العذلية لحسن العدل، مطبعة مدرسة والده عباس الأول، القاهرة، ١٩٠٧.

٤٤. محمود أمين العالم: الفكر المصري بين الخصوصية والكونية، دار المستقبل العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٨.
٤٥. مصطفى كامل: اوراق مصطفى كامل (المقالات - الكتاب الأول) تحقيق وأشرف: يواقيم رزق مرقص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.
٤٦. ناصيف اليازجي: علوم العرب، ضمن مجالي الغرر لكتاب القرن التاسع عشر، ج١، تجميع يوسف صفير، المطبعة العثمانية، بعبد - لبنان، ط٢، ١٩٠٦ م.
٤٧. هنا كوراني: التمدن الحديث وتأثيره في الشرق، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٤.
٤٨. هنا كوراني: إنهاض الغيرة الوطنية لترقية البضائع الشرقية، مجلة الفتاة، نشر مؤسسة المرأة والذاكرة، القاهرة، ج٦، ط٢ ٢٠٠٧.
٤٩. يواقيم رزق مرقص: مقدمة كتاب: اللورد كرومر: الثورة العربية، ترجمة عبد العزيز عرابي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.

#### ثانياً: باللغة الإنجليزية:

1. Charles Kurzman : Modernist Islam, 1840-1940, Oxford University Press, USA, 2002.
2. Hilary Kalmbach: Islamic Knowledge and the Making of Modern Egypt, Cambridge University Press, United Kingdom, 2020.
3. Parnell. Matthew Blair, Youth...Power...Egypt: The Development of Youth as a Sociopolitical Concept and Force in Egypt, 1805-1923(Unpub. Ph.D dissertation, ., University of Arkansas ,August 2016.
4. Islam Dayeh: Hasan Tawfiq al-Adl (d. 1904) – Arabic Tutor and Author at the Seminar für Orientalische Sprachen in Berlin, 1887–1892, <http://hdl.handle.net/1854/LU-01HTWGSQMXENF51GPNST270DDE>